المشرق

ثلاث زهرات نفيسة

في حديقة الكنيسة

للاب لويس شيخو اليسوعي

لمَّا دخل كاوثيس اوَّل ملوك فرنسة سنة ٤٩٦ كاتدرائيَّة رِمس ليصطبغ فيها بماء المعموديَّة ورأى تلك الكنيسة تتلألأ بالانوار وهي مزدانة بأبهى الحلي وافخر الرياش والحُلَل تخفق حولها الرايات وتحدق بها اكاليل الزهور اخذ منظرها بمجامع قلبه فصرخ مخاطباً اسقفها القديس ريمي : أهذه هي السماء التي وعدتني بها يا ابتِ ؟

إي نعم انَّ في بعض مشاهد الارض ما يمثل احياناً وان تمثيلاً خفيفاً سحةً من جمال السماء ومباهجها السرمديَّة . ولا شكَّ في انَّ الحفلات التي تُقام في كنيسة مار بطرس يوم تثبيت قداسة اولياء الله لِمَّا يُعَدّ من جملة الرؤى السماويَّة

وفي هذا الشهر المحرم قد تكرَّرت ثلاثاً تلك المجالي الثمانة لاكرام ثلث من العذارى الطاهرات بل من الزهرات العَطِرات التي نبتت في تربة فرنسة الكريمة فعطَّرت بشذى فضائلها حديقة البيعة الكاثوليكيَّة في آونة مختلفة . وقد أيد الله قداسة تلك النفوس الذكيَّة بالعجائب والمعجزات ما حمل ارباب الكنيسة الكاثوليكيَّة على فحص سيرة كلّ واحدة منهنَّ واستقراء فضائلهنَّ واثبات ما اجراهُ الله على يدهنَّ من الكرامات في حياتهنَّ وبعد مماتهنَّ . ولمَّا تمَّ البحث المدقَّق وثبت لدى اللجنة المعيَّنة لذلك انَّهنَّ ولا مراء يستحققن ان يُنظَمْن في عداد اولياء الله اصدر إمام الاحبار بندكتوس الخامس عشر البراءة المثبتة بذلك وعُقدت للاعلان بها ثلث حفلات قلَّما يُقام مثلها رونقاً وبهاء في كنيسة مار بطرس في اليوم التاسع ثم

في الثالث عشر والسادس عشر من ايار الماضي تقاطر الى الحظوة بمظاهرها الالوف المؤلفة من الزوّار من كافّة اقطار اوربّة واميركا ولاسيّما من فرنسة وطن هؤلاء العذارى حتّى ضاقت بجماهيرهم تلك الكنيسة مع رحبها وسعة أرجائها

وليست اسماء اصحاب تلك الحفلات مجهولة لدى معظم قرّائنا ألا وهنّ القديسة جان درك والقديسة مرغريتا ماري الاكوك والطوبويّة لويزه دي ماريلياك اللواتي أطلعهنّ الله بدوراً في كنيسته وقد ظهرنّ في ثلاثة مراسح مختلفة فقدّسنها بجميل مآثرهنّ: الاولى في ساحات الوغى والثانية في مقدس بعض الاديار والثالثة في المستشفيات ومآوي كلّ الاسقام البشريّة. فتنويهاً بفضلهنّ ها نحن نورد خلاصة حياتهنّ التي شرّفت وطنهنّ الكريم بل شرّفت الكنيسة الكاثوليكيّة او قل الانسانيّة جمعاء. فبهنّ يصحّ قول الشاعر:

ولو كان النساء كمثل هذي
لفُضّلت النساء على الرجالِ

١ القديسة جانه درك

(١٤١١–١٤٣٠)

أكرم بها فتاةً تاوح على محيّاها الصبيح سيماء اللطف والعزيمة. لله درّها ما أبهى تلك الفارسة في بزّتها الحربيّة على صدرها الدرع وعلى رأسها الخوذة

مُقلَّدة بحمائل سيفٍ لم تخترطهُ قط من غمده لأذًى وفي يدها الراية البيضاء شعار ملوك فرنسة المثلة لطهارة قلبها وبرارة حياتها . بمنطقيةٍ جوادًا يخوض بها معمعان الحرب

هذه هي جان درك مثال الشهامة والطهر وصورة حب الوطن والدين معاً قامت في الأمة الفرنسويَّة بمثابة دُبُورة في بني اسرائيل فأنقذت شعبها من عدوّ الذ كاد يُبيد قومها ويستعبدهم تحت نير سلطانهِ المطلق

قد سبقنا في مجلَّتنا (المشرق ١٢ [١٩٠٩] : ٣٢١ — ٣٣٧) وروينا اخبار تلك الشهمة الكميَّة فوصفناها في اطوار حياتها العجيبة كفتاة بارَّة اذ كانت في قريتها دومرمي ترعى غنم ابيها بسذاجة الاحداث . ثم اعتبرناها كرسول الله الى ملكها بدعوةٍ علويَّة اثبتت صحَّتها بما اجترحته من الكرامات والآيات المتعدّدة التي لم تدع لاحدٍ ريباً في كونها من السماء . تتبَّعنا آثارها في ساحات الوغى حيث اضحت قائدةً لجيوش ملكها تملأ بحماستها وإقدامها قلوب جميع المحاربين تحت رايتها رجاء بالنصر القريب وثقةً بالظفر المبين لاسيَّما بعد ان كسرت شوكة العدو ودخلت مدينة اورليان وفتحت الفتوحات الباهرة وفرَّقت شمل الانكليز شذر مذر الى ان قادت ملك فرنسة شرل السابع الى حاضرة رمس فمُسح ملكاً على فرنسة بالزيت المقدَّس وليس تاج اجداده الكرام مجدَّداً معظَّماً . وكلّ ذلك بموجب ما سبقت وبشَّرت به جان درك بايعاز الاصوات السماويَّة التي سمعتها مراراً دون ان يخلّ من كلامها حرف . وفي اثر ذلك وصفنا استشهادها وظروفهُ المؤثرة فظهرت في موتها اعظم واشرف منها في حياتها بل كانت لها في موتها حياةٌ مخلَّدة رفعت بها الى مقام اوليـاء الله ونظمتها في سلك اولئك العذارى الاتي يتبعن الحمَل ويتَّسمن بسيمائهِ ويتمجَّدن بمجدهِ فضلاً عمَّا نالتهُ في وطنها من الذكر الصالح وعرفان الجميل الذي لا تمحوهُ الدهور

وقد ختمنا اذ ذاك تلك الطرفة بتعريف حفلة تطويبها في رومية في ١٨ نيسان ١٩٠٩ حيث اعلن الحبر الروماني السعيد الذكر بيوس العاشر بسموّ فضائلها وسمح باكرامها في وطنها كطوبويَّة وشفيعة خاصَّة

وهذه الآن عشر سنوات مرَّت على تلك المواسم الجليلة فنال اسم جان درك من العظمة والرفعة ما كان اقوى دليل على سموّ شأنها وعلوّ مقامها . فأُنشئت على اسمها

الجمعيات الخيرية والشركات الوطنية والمشروعات التقوية ليس في فرنسة وحدها بل في كل اقطار المعمور ولم تحرم منها بلادنا العزيزة . فزادت ثقة الناس بحمايتها والتجأ الى شفاعتها كثيرون من المبؤوسين فكرمها الله بعدة معجزات باهرة ثبتت بشهادة الشهود العيانيين وفحص العلماء الاختصاصيين . وقد كانت نتيجة هذه الحرب الاخيرة آية من شفاعتها اذ حررت وطنها الثوريين من ربقة مغتصبيه كما حررت سابقاً فرنسة من نير اعدائها . فدفعت كل هذه الدواعي الكرسي الرسولي الى ان يرفع درجة اكرامها ويعمم عيدها في الكنيسة وينزلها منزلة كبار القديسين

وهذا ما جرى في الاحد الثالث من ايار في اليوم السادس عشر منه اذ عقدت في امّ المدائن لتثبيت قداسة جان درك حفلة زادت على الحفلة السابقة عزاً ورونقاً . حضرتها الدولة الفرنسوية رسمياً بواسطة احد عظام رجالها السيو هانوتو المحرر لترجمة تلك الفتاة الشهيرة . وقد التفت حولهُ الجماهير المجمهرة التي تقاطرت الى عاصمة الكثلكة لتمجيد تلك الابنة المباركة التي رفعها الله من حضيض الذل الى اوج المجد

ولم يبق بعد هذه المظاهرات الشائقة الّا امرٌ واحد يؤمل منهُ لفرنسة مستقبل عزّ ثابت وفخر دائم وهو اختيار عيدها كوسم وطني تشترك فيهِ كل الاحزاب السياسية على اختلاف النزعات والاهواء فتكون رابطة حبّ ووئام بين جميع ابناء فرنسة ابنة الكنيسة البكر . وهو امرٌ على وشك النجاز ستصادق عليهِ قريباً ان شاء الله ندوة العموم ومجلس الشيوخ . حقق الله الآمال

٢ القديسة مرغريتا الوكوك

(١٦٤٧ - ١٦٩٠)

ولكن ما لنا وميادين الحروب وصلصلة الصوارم واصطكاك الجحافل وقراع الابطال . فانَّ الانسان دُعي الى

جهاد اعظم واشرف مع خصم اشد وارهب لا يفوز فيه فرسان القوة والبطش بل ابطال الفضيلة واعلام القداسة

ومن جملة الظافرين بهذه الحرب الروحية عذراء اخرى سطعت انوار قداستها في احد اديرة رهبانيتها ثم انتشرت في انحاء فرنسة . وهاك اليوم اضواء اشعتها تنير اقاصي المعمور بتثبيت الكرسي الرسولي لقداستها

هي مرغريتا مريم الاكوك المحققة في شخصها معاني اسمها الكريم فكانت لؤلؤة ودرة ثمينة يستخرص كل غال بالنسبة الى جلال قدرها . كانت كالاقحوان زينة الحقول فزينت حديقة الرهبانية وعطرت روضة الكنيسة جمعاء . ترى في يدها صورة قلب فتحته حربة الجندي على الصليب فانبعث منه اتون نار اضطرم بها جنانها ثم عرضته على البشر لتتقد قلوبهم بمحبة خالقهم فيبذلوا دونه نفوسهم كما جاد هو بنفسه حبا بهم

اتاح لنا الله سنة ١٨٧٥ ان نزور الدار التي ولدت فيها مرغريتا الاكوك فتحول الى معبد يتبارك الناس بالحج اليه . وهي بيت بسيط في وسط قرية شارول التي لا تبعد عن مدينة پاره لوني ال من اعمال بورغندية اكثر من سبعة كيلومترات . فهناك رأت النور تلك الفتاة البارة في ٢٢ تموز سنة ١٦٤٧ وهي ابنة قاض اشتهر باستقامته وتقواه وسيدة ضارعته ورعا وحنانا . تربت في صغرها احسن تربية على يد والديها اولا ثم على يد عرابتها الشريفة الاصل ثم في دير راهبات القديسة كلاره في وطنها فاصبحت منذ نعومة الاظفار مثلا حيا لكل اترابها بكافة اعمال البر من استحرار بالصلاة وملازمة الصوم والتقشفات ومواظبة على الاسرار المقدسة الى ان بلغت مبلغ الشباب فحاول بعض اهلها ان يحببوا الى قلبها زخارف العالم وكادوا يفوزون بغايتهم لولا ان الله الذي كان اجتبى لذ قلب عبدته ارسل لها من المحن والاوجاع والاكدار والهموم ما زهدها بعالم البوار ووجه عواطفها تاما الى الله . على انها لم تفارق ابدا بل خدمتها اصدق خدمة في اسقامها عدة سنين الى ان نالت نعمة الشفاء فألحت مرغريتا وقتئذ عليها بان تسمح لها بالتزهب . فرفضت الام مدة طلبة ابنتها لكنها اجابت اليها آخرا خوفا من ان تخالف ارادة الله

وكان الله قد اقام في كنيسته في ذلك القرن رهبانية جديدة انشأها احد كبار

اساقفة زمانه القديس فرنسيس دي سال مع البارونة الشهيرة بمآثرها العظيمة أعني القديسة فرنسسكا دي شنتال ودعواها برهبانيّة زيارة العذراء غايتها تقديس اصحابها وتهذيب الفتيات بالعلوم والآداب. وذلك سنة ١٦١٠. فما لبثت ان انتشرت ايّ انتشار في فرنسة والبلاد المجاورة. وفي لبنان بعينطورا دير من هذه الرهبانيّة سبق لنا الكلام عنهُ في المشرق (٤ [١٩٠١] : ٧٠٤)

ففي احد اديرة هذه الرهبانيّة دخلت مرغريتا الاكوك في ٢٥ ايّار ١٦٧١ وهو دير پاره لمونيال المجاور لبلدتها شارول. وزادت على اسمها يوم ترهّبت اسم مريم شفيعة رهبانيّة الزيارة الخاصّة

في يوم انضواء مرغريتا مريم الى العيشة النسكيّة عدّت نفسها ميتةً للعالم لتحيا للربّ فجعلت نصب عينيها مثال القداسة والكمال السيّد المسيح لتطبع في قلبها سيرة حياته المحجوبة ثلثين سنةً في الناصرة فانكبّت على ممارسة الفضائل التي علّمها البشر ولاسيّما التواضع اساس القداسة والتجرّد عن كلّ الاميال المنحرفة والطاعة التامّة لاوامر الرؤساء والانقطاع الى الاشغال الوضيعة والتفاني في خدمة اخواتها والفتيات اللواتي عُهد اليها تدبيرهنّ

فكانت هذه الفضائل كمغناطيس قرّب الى مرغريتا قلبَ الله الذي يعطف الى النفوس الساذجة ويختار الضعيف والجاهل من العالم ليخزي القويّ والحكيم (١ كور ١ : ٢٧) فاختصّها بنعمه الالهيّة واتّخذها محرقةً ذكيّة الرائحة يتنسّم عرفها الطيب

وكان اوّل ما حبّب الى نفسها الصلاة والتقشّف لتفرغ قلبها من غبار الاهواء البشريّة وتملأهُ من الله فتحيا بالمسيح بل يحيا المسيح فيها (غلاطية ٢ : ٢٠)

ولمّا كان الربّ من دأبه اذا اصطفى نفسا ليسكب فيها اسنى هباته ان يُسرع فيشركها بصليبه بادر ايضاً الى ان يقدّم لعريسته كأس آلامه ليجعلها أولى بسوابغ نعمه. فاحدقت بها المصائب والاوجاع تترى فكانت تارة تعتريها الامراض المؤلمة المتواترة وتارة تتوارى عنها التعزية الروحيّة وعذوبة الصلاة وحيناً يتحامل عليها عدوّ الله الشيطان فيعذّبها بتجاربه ووساوسه المخيفة. وربّما امتحنها الرؤساء ليعجموا عود صبرها وقداستها ويتحقّقوا أهي مقودةٌ بروح الله او مغرورة بسواه. فكانت كلّ هذه المحن كالنار الماحصة للذهب خلّصت قلبها من كلّ شائبة ارضيّة

ولم تكن هذه المحن لتقوى على صبرها واتكالها على الله بل ظلّت تلتجئ الى ربها وتزيد فيه ثقةً واعتصاماً ولاسيّما بتقربها الى سرّ قربانه الاقدس حتى انقشعت عن قلبها تلك الظلمات واخذ السيد المسيح يكشف لها غوامض محبته الالهيّة ويذيقها حلاوة الامور السماوية وانتدبها خصوصاً الى عبادة قلبه الاقدس الذي طفح حبّاً نحو البشر واراد ان يتخذها وسيلة لنشر عبادة ذلك القلب الالهي فيعيش في الكنيسة روح الحب والتقى الذي كاد يخمد بسبب انتشار البدعة الجنسيّة مع جنوح البشر الى الاهواء العالمية وطلبهم حطام الدنيا وملاذها . وقد حظيت تلك البتول القديسة بعدّة رؤى . فتراءى لها الربّ كشمس ساطعة تلقي باشعتها الى قلبها . وانتزع يوماً قلبها فجعله في قلبه المتقد نارا فرأته كهباء منثور وردّ لها كشعلة نار . واخصّ من هذه الرؤى ظهور السيد المسيح لها اذ كانت يوماً ساجدةً امام القربان الاقدس غائصةً في سرّ محبته فرأته بكلّ جلاله ملتحفا بالنور . واذا بصدره المفتوح ياوح فيه قلبهُ المجروح ينبعث منه لهيب النار ويعاودهُ الصليب وحول القلب الاكليل الشوك فقال لعبدته : « هذا هو القلب الذي بلغ حبّهُ للبشر اي مبالغ حتى انهُ لم يدّخر وسعاً في بذله نفسهُ لهم ومع كلّ هذا لم يجد في اكثرهم الّا برودةً وفتوراً » ثمّ دعاها الى التعويض عن اهانات البشر وأرشدها الى ما توفي به عن نكرانهم الجميل . ووكل اليها نشر العبادة الى قلبه معدّدًا ما سينالهُ المتعبدّون له من النعم السابغة

ومذ ذاك الحين لم تألُ مرغريتا جهدها في اتمام رغبة المخلّص فاخذت تنشر هذه العبادة اوّلا بين طالبات رهبانيّتها التي كانت هي المرشدة لهنّ ثمّ بين الراهبات اخواتها وبين معارفها المتردّدين الى الدير

وقد اتاح الله لها احد مشاهير عصره المكرّم الاب كاود دي لاكولمبيار اليسوعي كمرشد لذمّتها . فهذا بعد ان تحقّق صحّة دعوتها اخذ يساعدها في اجتذاب النفوس الى عبادة قلب يسوع وناصرهُ في عمله الآباء اليسوعيّون بوكالة خاصّة من الربّ الى عبدته مرغريتا . فما مرّ على ذلك زمن طويل حتّى ظهرت مفاعيل تلك العبادة العجيبة الى زماننا هذا حيث أقيم على ربوة مونمرتر في باريس ذاك المعبد التعويضي المكرّس لقلب يسوع الذي هو احدى آيات الهندسة العصريّة فبلغ ما صُرف على بنائه الى اليوم نيّفاً واربعين مليوناً من الفرنكات . وقد وضع آخرًا الكردينال غباري الحجر

الاول لمجد آخر سيقام قريباً ان شاء الله لذكره على جبل الزيتون بجوار القدس الشريف

لم تطل حياة مرغريتا مريم فانها اذ وجدت انَّ المهمَّة التي عُهدت اليها من قبل الربّ قد تمَّت بانتشار عبادة قلب يسوع ضمن ديرها اوَّلاً ثمَّ خارجاً عنهُ في انحاء اوربّة مع مصادقة البكرسي الرسولي اخذ منها الفرح كلّ مأخذ حتَّى لم تُعد تفكّر الَّا بان تجتمع بعروس نفسها في السماء فأضاءها حبُّها لهُ فسالت قريحة العين باسة الثغر وهي في عزّ كهولتها في ١٧ ت ١ ١٦٩٠ وعمرها لا يتجاوز ٤٣ سنة

وقد مجَّدها ختنُها الالهي في السماء والارض معاً بما اصطنعهُ من العجائب بشفاعتها حتَّى ادرجها اوَّلاً البابا بيوس التاسع سنة ١٨٦٤ في سفر الطوبويَّات وها هي اليوم قد نالت مجداً اعظم بنظمها في سلك البتولات القديسات

٣ الطوبويَّة

لويزه دي ماريلياك

(١٥٩١–١٦٦٠)

هي الزهرة المعنويَّة الثالثة التي قدَّمتها الكنيسة البطرسيَّة لاولادها كي يتنشقوا أريجها العطر ويضمخوا النفوس بطيب فضلها . اشبهت جان دارك ومرغريتا الاكوك بقداستهما وان اختلفت عنهما بآثرها

ولدت لويزه في باريس من أسرة شريفة في ١٢ آب ١٥٩١ . كان ابوها سيداً على قرْيار من مقاطعة اقليم فندامي اسمهُ لويس دي ماريلياك وامُّها ماري لوكامو التي رُزيت في صغرها بوفاتها الَّا انَّ اباها وكان عريقاً بالدين ومن اكمل الرجال عقلاً واسدّهم رأياً سلَّمها اوَّلاً لاحدى اخواته المترهبة في دير پواسي الملكي فتربَّت تربية بنات

الاشراف . ولما بلغت اشدّها تولّى هو بنفسه تهذيبها فخرّجها بكل آداب عصره من الفنون الجميلة والفلسفة مع درس اللغة اللاتينيّة لغة العلماء

وبقيت الفتاة مع هذا على سذاجة فطرتها لا تجد في غير الدين واعمال التقى لذّة وانشراحاً . وزاد نفورها من العالم اذ توفّى الله ابواها وعمرها لم يتجاوز ١٥ سنة . وكانت تودّ لو تستطيع ان تدخل في جمعيّة الراهبات الكبوشيّات لولا انّ ضعف صحّتها حال دون تحقيق امانيها . ولم يزل بها اهلها حتى اقنعوها بان تقترن باحد سراة الدولة الفضلاء المسيو انطون له غرا (le Gras) كاتب اسرار الملكة مساري دي مديشيس في ٢ شباط ١٦١٣ فعاشت معه اثنتي عشرة سنة بممارسة كلّ الفضائل الاهليّة التي وصفها سليمان الحكيم في سفر الامثال من حبّ لزوجها وحسن تربية لابنها وقيام بشؤون بيتها وخدَمها وانقطاع الى الغزل واحسان الى الفقراء والمساكين مع المحافظة الدقيقة لكل اوامر الكنيسة . حتّى جعلت بيتها اشبه بدير منه بدار الاشراف . وقد زارها فيه ارباب الدين وخصوصا القديس فرنسيس دي سال الطائر السمعة

ترمّلت السيدة له غرا في ٢١ ك ١ سنة ١٦٢٥ اذ مات زوجها ميتةً صالحة فورثت منهُ مالاً وافراً اخذت تجود بهِ على البائسين . وكان مرشدها الاول كبوشي فاضل الاب هونوره ثم السيّد له كامو (le Camus) اسقف بلاي وهو من قرائبها لكنّهُ لبعد مقامهِ عنها انتدب لارشادها ذاك رجل الله القديس منصور دي پول احد اقطاب الدين وسند المشروعات النفيسة التي أنشئت بهمّتهِ ومساعاه في كلّ انحاء دولة فرنسة

فما باشر الأنبا منصور بتدبير تلك النفس الكريمة حتّى عرف سموّ فضلها وارتياحها الى كلّ عمل شريف ومشروع خيري . على انّهُ لم يسرع في دفعها الى كلّ ما كان يطلبهُ قلبها من الصلاح فامتحنها مدّة قبل ان يسمح لها بان تربط نفسها بالنذر الى الله في خدمة القريب وذلك في السنة ١٦٢٩ . فصارت منذ ذاك اطوع لهُ من بنانهِ في مباشرة كلّ ما يؤول الى مجد الله وصلاح القريب

وكان القديس منصور انشأ قبل ذاك الحين بمدّة قليلة جمعيّات خيرية كان يدعوها بجمعيّات اخوات المحبّة انتشرت في عدّة مدن من فرنسة تنضمّ اليها سيّدات .

من افاضل النساء يُعنَيْن بامور المرضى والمبؤسين . فارسل السيدة لويزه دي ماريلياك الى زيارة تلك الجمعيّات وتنظيمها واصلاح ما لعلّهُ طرأ عليها من الخلل . فقامت بهذا الامر احسن قيام فكانت حيثما حلّت تُنهض الهمم وتبعث في الجميع روح الغيرة والنشاط . وكان مثلها اقوى فعلاً من كلامها فتسبق الكل بعيادة المرضى واسعاف المقومين بل اقدمت على تمريض المطعونين ولم تنجُ من الداء الّا بنعمة خاصّة من الله . وقد انشأت جمعيّات جديدة من جمعيّات اخوات المحبّة فنما عددها وتهافت الناس الى مساعدتها . ولم تكتفِ لويزه بخدمة الاجساد بل كان همّها الاعظم تقديس النفوس وقد استرخصت من خوارنة الرعايا بان تجمع الفتيات وتعلّمهنّ حقائق الدين وممارسة اعمال التقى وتكرم بتالها على من كانت منهنّ محتاجاً

خمس سنوات قضتها السيدة له غرا في كلّ هذه الاعمال المبرورة أعربت فيها عن اطيب الصفات خدمة لاشقياء هذا العالم وتعسائهِ . وكان عدد عديد من النساء البتولات طلبن منها ان يخصصن ذواتهنّ لخدمة المبؤسين مثلها فاجابت الى ملتمسهنّ . ثمّ اتّفقت بعد برهة مع القديس منصور ان تُنشئ بينّ جمعيّة قانونيّة فيقمن في اديرة خاصّة ذات عيشة رهبانيّة منظّمة غايتها ممارسة اعمال الرحمة نحو القريب . فانتظم في هذه الجمعيّة بعض المشتركات بشركة اخوات المحبّة السابق ذكرهنّ وشركة بنات الفقراء التي كان انشأها القديس منصور قبل ذلك سنة ١٦١٧ . وتمّ الامر في ٢٥ آذار سنة ١٦٣٤ حيث ابرزت لويزه دي ماريلياك نذور الفقر والعفّة والطاعة بين يدي مرشدها الجليل وتعيّنت كرئيسة على الراهبات التابعات لطريقتها . وما فتئت ان وضعت لهنّ قانوناً مملوءاً حكمةً وتقى تحت نظارة القديس منصور . فاثبتها اولاً رئيس الساقفة باريس سنة ١٦٥٥ ثم تقرّرت بتثبيت الكرسيّ الرسولي سنة ١٦٦٨ . وقد اختارت راهبات المحبّة لثوبهنّ ثوب نساء العامّة في ذلك العهد وبقين عليهِ الى يومنا واتّخذن لتدبيرهن الروحيّ كهنة الرسالة المعروفين باللعازريين الذين انشأهم القديس منصور

دخلت جمعيّة راهبات المحبّة في طور جديد يوم انتظامها قانونيًّا وصارت منذ ذاك ترقى معارج التقدّم والنجاح فتراكت عليها طلبات البلاد مباشرةً بمدينة باريس التي سلّمت اليها ادارة اكبر مستشفياتها (Hôtel-Dieu) ومثلها فعلت معظم مدن فرنسة

ولم يكتفين بالمستشفيات فانَّ الرئيسة الفاضلة لم يبلغها خبر سقم بشري ايًّا كان حتَّى كانت تسرع الى علاجه فمن ذلك انها فتحت في باريس سنة ١٦٣٦ منزلًا كبيرًا للقطاء الذين بزمن قليل كادوا يبلغون الالف عدًّا

ثمَّ رضيت بفتح مأوًى للعجزة رجالًا ونساء في السنة ١٦٥٣ ولم تلبث حتى الحقت به مأوى آخر لخدمة المجانين . فكانت كلّ هذه المقامات تصيب في ايدي راهبات المحبَّة نجاحًا كبيرًا لحسن تدبيرهنَّ وتجهيزها بكل ما يؤول الى راحة اولئك المسقومين . وكان الزوّار اذا زاروها يحسنون اليها بسخاء

ولمَّا جرت في عهد الملك لويس الرابع عشر تلك الحروب الطويلة بين فرنسة والدول الاوربيَّة المختلفة طلب القوَّاد الفرنسويُّون مساعدة راهبات المحبَّة لمعالجة المرضى والمجروحين في ساحات الحرب فلبَّت رئيستهنَّ الفاضلة الى دعوتهم وسُرَّ الجنود بحضورهنَّ اي سرور حتَّى انَّهم كانوا يموتون بفرح بين ايديهنَّ

وكذلك فعلت ملكة پرلونيا لويزه ماري دي غنزاغا ابنة دوقة دي نوڤير فانَّها طلبت راهبات المحبَّة لمرافقة جنودها في الحرب وكانت أُعجبت بتفانيهنَّ يوم زارت مأويهنَّ في باريس

وقد انتشرت بزمن قليل سمعة هؤلاء الراهبات في معاملات فرنسة فاخذ مأمورو ها يتسابقون في الطلب الى لويزه دي ماريلياك ترسل بناتها الى اخانهم ففتحن عدَّة مستشفيات في بلاد شپانية وپيكردية ولورين حتَّى اصبح اسمهنَّ مرادفًا للانكة المحبَّة . ومن مآثرهن الجليلة خدمتهنَّ للمجرمين والاثمة الذين حُكم عليهم بالاشغال الشاقَّة لجناياتهم المستقبحة فرددنَ كثيرين منهم الى التوبة والصلاح

امَّا رئيستهنَّ القديسة فكانت تتكاثر لتفي برغبة كلّ الطالبين وتسبق جميع بناتها في كلّ اعمال الرحمة والشفقة وهي غالبًا منهوكة القوى مصابة بعدَّة اوجاع تلزمها الفراش دون ان تخفف همَّتها في شيء . وكانت تستمدُّ قوًى من عَلُ من القربان الاقدس الذي تعبَّدت له تعبُّدًا خاصًّا ولاسيَّما من قلب يسوع الاقدس الذي سبقت وعرفت كنوزهُ الثمينة قبل انتشار عبادتهِ على يد القديسة مرغريتا مريم . وقد وجدوا لها آخرًا في باريس اثرًا غاية في النفاسة وذلك صورة جميلة رسمتها لويزه بيدها تمثل شخص السيد المسيح ربّ الجلال واقفًا وباسطًا يديهِ المثقوبتين بالمسامير وكذا

رجلاهُ المباركتان . امَّا صدرهُ فيلوح منهُ قلبهُ الاقدس يشعُّ نورًا حولهُ وكثيرًا ما كانت الطوبويَّة دي ماريلياك تجثو امامهُ في حجرتها . وفيهِ اعظم دليل على عبادتها لقلب الربّ

انطفأ نور حياة مؤسِّسة راهبات المحبَّة في ١٥ آذار سنة ١٦٦٠ فماتت في قبلة الربّ ميتة الابرار وسبقت بذلك رفيقها في اعمالها العجيبة ومرشدها الكريم القديس منصور فمات بعدها باربعة اشهر وكان آخر اعمالهِ قبل وفاتهِ انهُ دعا كافَّة راهبات المحبَّة في باريس وألقى عليهنَّ محاضرة في فضائل امهنَّ فكان خطابهُ احسن ثناء على حياتها المبرورة . وها قد ايَّد الكرسيّ الرسوليّ حكمهُ في قداستها ببراءة البابا بندكتوس الخامس عشر مثبتًا لستر فضلها وصحة العجائب التي اظهرها الله بشفاعتها . ومن اعظم هذه العجائب فوز سلالتها الكريمة التي استوقفت نظر العالم بأجمعهِ بما اتتهُ مدَّة ثمانية سنة من الاعمال الشريفة لعلاج كلّ الاسقام البشريَّة . فنهنئ سائر بناتها لما نالتهُ منشئتهنَّ من الاكرام والشرف ونتمنى لهنَّ بشفاعتها ان يزددنَ كلّ يومٍ عددًا وفضلًا لمجدهِ تعالى ولخير الانسانيَّة عمومًا

اللاهوت البدوي في شرقي الاردن

بقلم حضرة الخوري بولس سلمان

من رام ان يسطِّر بحثًا وافيًا وقولًا شافيًا عن ديانة البدو ان قضى عليهِ النقد الصحيح والعلم الراهن ان يقيم بين خيامهم حينًا طويلًا صبورًا على معيشتهم وعاداتهم رابط الجأش للاستقصاء عن سرائرهم وخلجات نفوسهم . وهذا الدرس على عزَّتهِ وتعذُّر منالهِ لم يَخُض فيهِ الَّا نادرًا العلماء المبرّزون والكتبة المترسلون فلذلك لم اطمع ان أفيهُ حقَّهُ وأُحيط بهِ من سائر اطرافهِ فاقول :

اعتقاد اهل البادية بالله ووصفهم له

بدء الحقائق الدينية واساسها هو وجود الله عزّ وجلّ . فالأعراب لا ينكرونهُ لا بل يتجلّى عندهم في سائر اطوار حياتهم . لا ريب ان الجهل يسود على عقولهم فلا يميّزون معنى صفاته الحسنى ويعجزون عن بيان طبيعته العظمى بشرح واضح يسفر عن الحقيقة نقابها ويُبديها بجاليها غير انهم لا يشكّون فيها . وقد تاه في بيداء الضلال من ادّعى ان لا دين لاهل البادية . واذا سألنا اهل البادية ما هو الله ؟ يقولون « الله خالج (خالق) الدنيا . هو رب رحيم » . واذا استوضحناهم عن غير ذلك يجيبون بهذه العبارة الجامدة « لا ندري . الله يدري » او : « لا نعلم . الله يعلم . من يدخل في علم الله . هو القدير وبكل شيء عليم . يحيي ويميت »

قلنا لاعرابيّ يوماً اين يوجد الله قال : « الله يسكن في السماء فوق سابع سماء بين النجوم فاذا حرّك يده ظهرت الكواكب بألوانها السنيّة وصعدت النجوم . والقمر يسبح في الفضاء يرسل انوارهُ الفضيّة » فتارةً يمثلون الله بحديثهم كشيخ طوى مراحل الحياة فلعب البياض بلحيته وطوراً بفارس بطل يجول في الاقطار باقل من لمح البصر . قال مزعل الشراري : « ان الله يملأ الدنيا كأنّ له حصاناً اسرع من وميض البرق يطوي العالم من اقصاه الى اقصاه ويراقب الاعمال ويعلم النيّات »

سألتُ يوماً عبد الهدي شيخ العوازم وقاضيهم الاداري : كيف خلق الله العالم؟ قال : « نحن العرب لا ندري ولكن الخطيب يعلّمنا ان الله تعالى خلق الخلق من اربعة اشياء . خلق الملائكة من نور والجانّ من نار والبهائم من ماء . وآدم من طين . واوّل ما خلق الله تعالى من الحيوانات النحلة وآخر ما ابدع القرد . واول ما انشأ من النبات الكمأة واول ما كوّن في الارض الجماد ثم النبات ثم الحيوان ثم الانسان وهو آخر المخلوقات » . قال : « لما اراد المولى سبحانه تعالى ان يخلق آدم أوحى الى الارض اني أريد ان اخلق منكِ خلقاً فمنهم مَنْ يطيعني ومنهم مَنْ يعصيني . فبكت الارض فانفجرت منها العيون وهذا اصل الينابيع . وزيّن الله ادم بانواع الزين فكان يخرج من ثناياه نور كشعاع الشمس ثم حُمل على اكتاف الملائكة وطافوا به في السماوات مقدار مئة عام ثم سكن الجنة والجنة ليست على الارض . ولما اخطأ وأكل

من الشجرة المحرَّمة بكى عليهِ جميع ما في الجنة الّا الذهب والفضة وشجر العود فناداهم المولى وهو على العرش وقال : لِمَ لا تبكون على عبدي ؟ قالوا : ربَّنا لا نبكي على عبد نستعبدهُ بجبّنا . فقال : لو كان عندكم رقّة لبكيتم خوفاً فوعزّتي وجلالي لا ينتفعُ بكما (اي الذهب والفضّة) الّا بدخولكما النار . وانتِ يا شجرة العود لا يفرح لكِ عطر الّا في النار المتلهبة »

ولهم اعتقادات غريبة في خلق الارض نذكرها على علّاتها . كنت يوماً غربيَّ مادبا في خيمة الشيخ محمد الخواطرة وهو شيخ عرب الزايدة وله إلمام في الامور الدينيَّة فسألتهُ عن الارض وخلقها فقال : « الخطيب صاحب العمامة البيضاء يقول : لمّا خلق الله الارض بعث من تحت العرش ملاكاً فهبط الى الارض ودخل تحت الارضين السبع فوضعها على عاتقهِ واحدى يديه بالشرق والاخرى بالغرب فضبطها ولم يكن لقدَمهِ موضع قرار فاهبط الله من الفردوس ثوراً وجعل قرار قدَم الملاك على سنامهِ فلم يستقرّ فاخذ الله ياقوتةً حمراء غلّظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها على سنام الثور فاستقرّت عليها قدماه . ولذلك الثور اربعون الف قرن ومنخراه في البحر فهو يتنفّس كلَّ يوم تنفّساً واحداً فاذا تنفّس مدَّ البحرَ واذا ردَّ نفسه جزَرَهُ »

ومن معتقداتهم الجارية مجرى الحديث هو ان حكم القدَر امرٌ لا مردَّ لهُ وفقاً لقول الشاعر العربي :

جرى قلمُ القضاء بما يكونُ فبيّانٍ التحرُّكُ والسكونُ
جنونٌ منك ان تسعى لرزقٍ ويُرزَق في عشارتهِ الجنينُ

فالله هو المسبّبُ لكل شيءٍ من خير او من شرّ (١ فالانسان نفسهُ اصبح خالياً من حرّيَّة الارادة لا بل هو ذرَّة حقيرة تتناقلها ايدي الاقدار كيفما شاءت وتتلاعب بها كما يتلاعب الطفل بكُرَتهِ الصغيرة . فالمولى هو المنشىء العظيم لعالم الاكوان . من يا ترى يسقي الارض بماء غزير فتنشأ منهُ الازهار وتنضج الاثمار وتخضرُّ السهول والهضاب ؟ هو الله عزَّ وجل . وكم من خارقة يعزونها الى الله . فبينما السماء صافية والارض في راحة وهناء اذا برياح شرقيَّة تتصاعد كأعمدة نحو الفضاء فتغدو زوابع

١) الشرّ اماً ماديّ او طبيعي واماً ادبي فالشر الطبيعي يجوز نسبتهُ الى الله واماً الادبيّ فالله ليس هو مسبّباً لهُ وان يسمح بهِ . واماً الانسان يأتيهِ بارادتهِ وحرّيّتهِ

فالأعراب يذكرون الله في مطلع اعمالهم واقوالهم . ففي ابتياع امر يضع البائع يده في يد الشاري فيقول الشاري : « باسم الله وأفلح وصلِّ على النبي » ثم يتبايعون . واذا احتدَّ البدوي غيظاً واراد احد الحاضرين ان يهدّئ هائجه يقول له : « سمِّ بالرحمان واطرد الشيطان » . او : « استعن بالله من شر الوسواس الخناس »

وكان عرب الجاهلية يذبحون للاصنام ويلطخونها بالدم فيلتمسون بذلك الزيادة في اموالهم وكان قُصي بن كلاب ينهى عن عبادة غير الله وهو القائل :

ارباً واحداً ام الف رب أدين اذا تقسَّمت الامورُ
تركتُ اللات والعزّى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصيرُ

على ان اهل البادية الحاليين وان كانوا لا يعبدون الاوثان فهم باجمعهم يأنسون الى المعتقدات الطبيعية ويكرمون الاحجار المقدَّسة والاشجار المُورقة والمياه الرقيعة التي يَعزون اليها شفاء الامراض فيقدّمون لها ذبائح شكر كما سندلّ عليه في باب الذبائح البدوية . ويعتقدون اعتقاداً شديداً بتراحم الله ويقولون : مَن اغتسل بعد موته فقد نال صفح الجرائم ودخل الجنّة لا محالة . وكان الجاهليون يقيمون لذلك الغسل اعتباراً جزيلاً . ومن ذلك قول الافوه الاودي :

ألا علّلاني واعلما انني غَرَرْ فما قلتُ ينجيني التثاقل والحذَرْ
وما قلتُ يجديني ثوابي اذا بدَتْ مفاصل اوصالي وقد شخص البصَرْ
وجاؤوا بماء بارد ينسلونني فيا لك من غسل سيتبعه القَبَرْ

فالشعراء قادة العشيرة عند الاعراب يستهلّون نظمهم بذكر الله فكان العرب في عهد جاهليتهم يستهلّون بالبكاء على الاطلال والتشبيب والتنزّل . على ان ارباب الشعر في دهرنا الحاضر لم يقتفوا آثار اسلافهم فهم يبدأون بمدح المولى وصفاته كقول احدهم :

ابدي بذكر آلي على انكل بادني رب الملا والي جميع البوادي
يا رب لا تكتب عليَّ نكادِ وعليك خوين الامورِ الصيباتْ .

فالاسم الكريم هو مطلع قصائدهم كما ابنّاه في مقالتنا عن الشعر البدوي حيث اوردنا امثلة عديدة في ذلك (١

١) راجع في المشرق (١٧ [١٩١٤] : ٢٢٥) مقالة الشعر البدوي في شرقي الاردن

فاهل البادية يترنمون باسم الله الرفيع في سائر اطوار حياتهم حتى قبل الغزوات والحروب وقبل ان يذبحوا النفوس الكريمة . وقد يظهرون ايمانهم بالله بما يقيمون له من الأقسام المعظّمة . وقد ذكرنا عدداً وافراً من الاقسام في مقالتنا عن القاضي البدوي وفاتنا من هذه الاقسام قسم عظيم فاذا ارادوا ان يحملوا انساناً على الحلف يقولون له : «قل ثلاث كلمات : اولها الله وآخرها الله والكاذب بريء من الله انك ما فعلتَ الامر الفلاني» . فيجيب امام الجمهور بصوت مرتفع : «اقول ثلاث كلمات اولها الله واخرها الله والكاذب بريء من الله اني ما فعلت كذا كما تدّعي» . فمن هذه الادلّة يظهر بجلي البيان انهم يرهبون الله جلّ جلاله ويقدّمون له فرائض الاكرام والاجلال

الذبيحة في البادية

ومن دلائل العبادة بين الشعوب هي الذبيحة . وهي كثيرة عند الاعراب يتزلونها منزلة رفيعة حتى لقد غدت جارية مجرى الضرورة في جميع اطوار حياتهم . ونقتصر الان بذكر بعض الذبائح التي من شأنها ان تُبدي عبادتهم واعتقادهم بالله . مَن رام من الشبان ان يفترق عن اسرته ويرفع لنفسه بيتاً شعرياً جديداً عليه ان يقدّم ذبيحة شكراً لله على ما انعم عليه من غابر الازمان وطلباً لآلائه في مقبل الايام . اجلْ انه لأمر جدير بالاعتبار ان يشيّد المرء بيتاً بين هاتيك البيوت العديدة لانه يصبح ذا رأي ويعرف معنى الحرية والحياة الذاتية . فهذا البيت الحقير الذي لا يكاد يخفي اشعّة الشمس ويطفىء وقدات الحرّ له ذبيحة خاصة . يأتي الشاب بنعجة بيضاء ويدير رأسها نحو الجنوب وينحرها وهو يقول : « دستور يا صاحب البيت » وينضح اعمدة البيت ونسيجه بدمها قائلاً : « يا ربّ النلا تحفظنا من العين والبلى » . وفي البيوت الحجرية ينحرون النعجة على سطح المقام فيسيل دمها على الحائط الى ان يصل الى عتبة البيت . وقد تعهّدنا هذه العادة في السلط والكرك وماعين ومادبا

وفي كل خطوة من خطوات الاقتران لهم ذبائح معروفة باسمائها . فمنها ذبيحة العِفاح او الخطبة ومنها ذبيحة الحناء والتبريد والحلّيّة ويكون ذلك بعد احضار العروسة على فرس أصيلة الى بيت العريس . فينهض الشاب ويذبح الشاة وهو يقول : حلّي حَلّك الله . اي ان الفتاة غدت حليلة له . ومن ذبائحهم هذه يظهر لنا ان كل

امر جليل خطير يكرّس بالدم . ولهم ذبائح متعدّدة للاموات يتحرونها على لحده فتُهراق الدماء على المائت . ومنها ذبيحة المولود الذكر والختانة والضحيّة الكبرى . افردنا لها باباً مسهباً نوردها في محلها ان شاء الله

صلوة اهل البادية

ومن اعظم الحجج على تدنّين الاعراب هي الصلاة . هل يا ترى يعرفون البسملة كما يذكرها القرآن الشريف ؟ كلّا ان عدداً وافراً يجهلون وجودها . واذا استنبأناهم عن تقصيرهم هذا في امور دينهم وآخرتهم يجيبون : لسنا خطباء . والخطيب عندهم هو الإمام المدرّس للشرائع الاسلامية . فقلّما وجدنا الصلاة منتشرةً بينهم . واهل البادية لا يبالون بفروض الشكر والاستغفار بل يدعونها للدّولاني كما يقولون . والدولاني في لغتهم هو كلّ من دخل في منصب من مناصب الدولة كالمفتي والقاضي والوظّفين والجنود . غير انّ الفلاحين اصحاب القرى في شرقي الاردن يقيمون للصلاة محلًا ويسجدون السّجدات المعهودة وفقاً للشرع المحمدي . وكثيرون من اهل البادية لا يعتبرون ما هو مسطّر من الصلوات بل يعرفون غيرها فيوردونها قائلين : « يا رب فرشت عباتي اقبل صلاتي » ثم يأخذون بذكر صلاتهم التي أَلِفوها

ولقد يوجد في شرقي الاردن عشيرة تدعى عشيرة الزايدة وهي تضرب خيمها في غربي مادبا وتسرّح اغنامها في ارض الحمرة وهي جبال ممتدة شرقيّ نهر الشريعة الى قرب جبل موسى . وهذه العشيرة قد اشتهرت بالنهب والسلب والتعدّيات المتواصلة فتراها تهجم في ظلمات الليالي وطياته الى الضواحي والسُّبل المنفردة فتسرق ما يقع بين يديها من غنم وشاء وغير ذلك من امتعة المسافرين غير انّ شيخهم ابا بنيّة او محمد الخواطرة لا يدع فرض الصلاة والوضوء . ولا ندري ايّ ملاكٍ يرفع تلك التضرُّعات الى عرش المولى . وهو زعيمهم في الجرائم المتواصلة . ولقد جمعني وإيّاه مجلس فرح في منزل سليمان الحدادين في قرية ماعين فكان يتحدّث بالتؤدة والوقار فيضرب تارةً الامثال الهزلية وطوراً يسرد الحكايات والحكميات ممّا أعجب الحاضرين . فلم يكن ليتبسّم ثغراً ولا يبدي حركة في حديثه ممّا يخرج عن حدود اللطف والانس . ولمّا رأى الشمس قد قاربت المغيب نهض ففرش عباءته وصلّى صلاته .

فقال احد الحاضرين: يسأل المولى ان لا يدعهُ بدون مرتزق في تلك الليلة. ثم التفت اليَّ وقال بصوت منخفض: « أتدري ماذا يقول؟ » . قلت: كلا. قال: يضرع ويقول: « يا رب تُضلُّ المسافرين وتخرجنا من بينهم سالمين غانمين». فضحك الحضور من هذا التأويل اللطيف

واليكم صلاة الشرارات لا بل صلاة ارباب الخيم البعيدين عن المدن الغنّاء. وهي غريبة في بابها سمعتها من عليان الشراري في قرية مادبا. « يا الله يا الله يا الله . قامت الصلاة والله اقامها. يارب فرشت عباتي تقبل صلاتي الحمد لله حَمْد البلاد بالمطر. حَمْد الانثى بالذكر. حمد العين بالنظر . حمد من شاف عورة وستر . يا ماحي السيئات تمحي سيئاتي . يا كاسب الحسنات تكسب حسناتي وترحمني وترحم اهلي وامواتي. دخيلك من الاثنين الاسودين. أَلي بيدهم مطرق حديدين واحد يضرب على الراس والاخر على الرجلين. استغفر الله على ما لهيت. واستغفرك يا الله على ما سهيت . واستغفرك على زلّة جنيت . وارحمني حيّ وميت »

وكانت العرب قديماً اذا لبّت وهلّت تقول: لبّيك اللهم لَبّيكَ لبيك لا شريك لك الّا شريك هو لك تملكه ومالكه. ولم يكن لهم صلاة محدودة بل كان كل امرئٍ يصلي حسب قلبه وعارّ مداركه

واذا امسك السحاب عنهم مدة من الزمان كان الشيخ يحمل ابنه الطفل ويرفعه الى السماء ويقول: « بحقّ هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هاطلاً » . فربّما اطبق السحاب وجه السماء وأمطر مدراراً . وممّا يحكونهُ ان اهل مكة اصابهم جدبٌ عظيم وامسك السحاب عنهم سنتين فامر ابو طالب ابنه ان يُخبر محمداً وهو رضيع في قماطه. فوضعه بين يديه ورفع ذراعيه نحو السماء وقال: بحق هذا الغلام اسقنا ماء

وكان الجاهليون يكفنون موتاهم ويصلّون عليهم وكانت صلاتهم اذا مات الرجل وحُمل على سريره ان يقوم وليُّه ويذكر محاسنه ويثني عليه فيدفنه ويقول: « سلام الله عليك . ورحمة الله عليك» . وفي ايامنا الحاضرة يقولون: « فلان مات رحمة الله عليه »

ولقد سمعت حميدياً من عرب الحميدة يصلّي بالقرب من سيل الموجب ويقول: « سبحان الله سبحان الله. يا مُسيّر الجناح (اي الطير) ولا ندري اين راح. يارب

تسترنا وتستر عوراتنا وترمي الظالمين بالظالمين وتطلعنا من بينهم سالمين » . ورأيت صخرياً واقفاً بالقرب من مهورة له ويصلي ويقول : يا مهرة بغطاها . الحمد لله الذي اعطاها . الله اكبر الله اكبر » . فسألت : ما هذه الصلاة ؟ قال : يحمد المولى على انعاماته . والعرب اهل خيل ونياق فيرددون هذه التسبحة شكراً لله على احسانه

يُروى ان عالماً من ائمة الاسلام حضر الى عرب بني صخر (وهؤلاء اقلّ العرب تديُّناً) . واخذ يروي لهم فرائض العبادة والصلاة فقال شيخهم وقد ملَّ من عظات الامام : « يا خطيب نزّاك اجحفتَ وجه الخير » . اي ابرمتَ الله بقولك « الله اكبر » ثم اردف قائلاً : « يا خطيب هو . علّمني يوم الحشر والنشر مَن يكون جالساً على العرش ليحكم في يوم الدين ؟ هل موسى بن عمران يكون حاضراً ؟ قال : نعم . وعيسى بن مريم ؟ قال : نعم . ومحمد رسول الله ؟ قال : نعم . قال : كفى يا خطيب البَسْ عمامتك وارحل عنّا ولا تمُدّ الينا . كلهم اجاويد في محضر الاجاويد تفك المشاكل والكبائر . كلهم اجاويد يشفعون بنا عند المولى العظيم فكفانا قولاً : الله اكبر الله اكبر » . فخرج الامام من مضاربهم حزيناً على جهلهم وغباوتهم . ولذا قلّما تجد الصلاة منتشرة بين اهل البادية

ومن البدوان مَن يصلي عند ارتفاع الشمس قائلاً : « طلعت الشمس . ارتفع العرش أعطنا خير اليوم واكفنا شر امس . واكفنا شر من زادت عليه النفس . من جنّ ومن انس » . وعند غروبها يقولون : « يا رب الغروب . لا تضيع علينا المطلوب عند مسالك الطيب . جيب لنا فرجك القريب » . وعند صعود الهلال يأخذون في يدهم عوداً يابساً ويكسرونه قائلين : « يا هلال الصعود كل شهر تعود بجملك هلال مسرة لا هلال مضرة . دَرْ دو . دَرْ دو . در دو . هلّ هلالك وعزّ جلالك سبحانك في مكانك » . وقد يمكن ان تكون هذه الصلوات قليلا مما بقي من عبادة النجوم والسيارات في البادية . فالتاريخ يطلعنا على ما كان عليه الجاهليون من عبادة الاوثان لاسيما الكواكب الساطعة . على ان الحارث في بدء عمله يقول : « يا رب ترزقنا وترزق اهالنا . يا رازق الهاجم والباجم يا مُرزق الطير في ظلام الليل يارب الغلال وفتاة البال يا لله انّا فلّطناك (اي قدّمناك) ومتوكلين عليك يا رب تسعدنا وتسعد عيالنا »

ولهم صلاة غريبة تختصّ بالامطار يتلون فيها آيات رقيقة واليكم وصف ذلك .

اذا امتدَّت الايام بوقداتها ويبست الاعشاب ونضبت الآبار وكاد العرب يهلكون من قلة الأمطار ترفع النساء اصواتها ويسترحمن السحب المتونة والمياه الغزيرة. فتعمد النساء الى خشبتين ويرفعنها على شكل صليب ويُلبسنه الثياب النسائية الجميلة والحلى المزركشة ويعطنهنَّ رأساً لذلك الصنم ويطوقنَ عنقه بالقلائد الثمينة والاقمشة الحريرية. فهذا التمثال يدعى عندهنَّ امَّ الغيث. وتحمله السيدة العظيمة في عشيرتها ويتبعها جمهور كبير من النساء وهن يرنمن :

« امَّ الغيث يا دائم بلّي زرعنا الناعم
بلّي زرع ابو جابر الّي للكرم دائم
ام الغيث يا دائم اسقي زرعنا الناعم
راحت ام الغيث تجيب الزلازل ما جات غير الزرع طول السنابل
راحت ام الغيث تجيب الرياح ما جات غير الزرع طول الرماح
راحت ام الغيث تجيب الرعود ما جات غير الزرع طول القعود (البعير الصغير)
ام الغيث يا دائم خلّي سيلها يدعج
ام الغيث يا ربي اسقي زرعنا الغربي
ام الغيث يا دائم اسقي زرعنا الناعم »

فيزعمون ان تلك الصلاة النسائية ترتفع الى العرش العلوي وتحرّك قلب الرب عزَّ وجلَّ فيعطف على تلك النساء والبنات المرتلات فيرسل مطراً مدراراً يحيي الزروع ويملأ الآبار

ومما ذكرنا يتجلى ان العرب لبثوا على عهد جاهليتهم. فأمّ الغيث هذه هي مريم العذراء كما فسّرها لي احد الشيوخ. وقال غيرهم لا بل هي إلاهة قديمة كان يعبدها الجاهليون ولبثت عبادتها الى دهرنا الحاضر. ولم يتسنَّ للاسلامية ان تنزع من بينهم بعض العادات والمعتقدات الجاهلية

ولقد نجد في البادية طبقةً من المتقين الصالحين قد ارتقوا الى ارفع درجة من الكمال البدوي فهم كما قال احد المتقدمين في وصفهم :

اهل الفضائل غضُّوا ابصارهم عمَّا حرَّم الله عليهم ووقفوا اسماعهم على ذكر الصلاح ولولا الاجل الذي كُتب عليهم لم تستقرّ ارواحهم في اجسادهم طرفةَ عين شوقاً الى الثواب وخوفاً من العقاب. فمن علامة احدهم انك ترى له قوة في دين وحزماً في لين يعمل الاعمال الصالحة وهو على وجل يمسي وهمُّه الشكر ويُصبح وهمُّه الذكر

فهؤلاء هم الفقراء في لغة اهل البادية او اهل الطريقة . وفي كل عشيرة من شرقي الاردن نجد واحداً منهم . واليكم وصفَ واحدة منهم نقتصر بذكرها عن سائر الفقراء فهي مثال لجميع الصالحين . لقد تعهّدنا بأنظارنا فقيرةٌ تُدعى سلمى الشرارية قاطنة في قرية ماعين (بعل معون القديمة) وهي عجوز شوهاء كاد الدهر يفنيها وجهُها شاحب عيناها سوداوان تلمعان كالبرق . كان النهار قد قارب المغيب والشمس أذنت للرحيل وراء جبال اليهودية وكنا في حجرتنا في ماعين واذا بصوت يرتفع في الفضاء عن بعد يئنُّ انّات التضرُّع والشكر فهرعنا نحو الصوت . فكانت سلمى الشرارية جالسةً امام مغارة واسعة الارجاء تعفّر وجهها بالتراب وكان رأسها مغطّى بنسيج احمر حريري وقد اتجهت بصدرها نحو الجنوب . وكان بيدها قضيب صغير ترفعهُ على رأسها ثم تخفضه وهي تميل تارةً نحو الشمال وطوراً نحو الجنوب وعيونها شاخصة وفمها يزبد فيسيل لُعابها على صدرها . وعلى رأسها وكتفها اجراسٌ صغيرة اذا تحرّكت ابدت نغماً مطرباً . فنظرنا اليها نظرةً مرتاعين وهي كالجمل الهائج تصيح وتقول :

« هَلَا (١ هلا هلا بالله . هلا بمحمد رسول الله . هلا هلا ما هلا بقبالة الله . الباقي دايم وجه الله . السترة يا وجه الله . هلا بالعجام (٢ هلا بجدّي . هلا بسليمان هلا بفاطمة بنت النبي . الرضى بالله . السترة بالله »

فوقفنا طويلاً نتأمل بتلك الصورة المُرعبة وكانت سلمى الدرويشة خافضة في بحور الرؤى لا تكاد تشعر بمن حولها من الناس تتمثّل امامها صور بديعة صور اشباح غير منظورة . فتقدمنا نحو زوجها وسألناهُ عمّا تشاهد من المناظر الجميلة ممّا يجعلها تتبسّم تارةً وتضحك اخرى . قال : « انها ترى الدنيا وقد بُسطت امامها . ترى الملائكة جالسين على كراسيّ من نار لطيفة . ترى الصالحين والاشرار يمرّون امامها افراداً وازواجاً » . ولبثنا وقتاً مديداً نتأمل بحركاتها واشاراتها . وبعد هنيهة انهنت رأسها فقلنا لها : ماذا رأيت يا سلمى ؟ فقبّلت الارض ولم تنطق بكلمة ثم

١) هلا كلمة بدوية تدلُّ على التأهيل بمعنى اهلاً وسهلاً

٢) العجام هو جدّ من اجداد الاتقياء يوردون اسمه في صلواتهم ورؤاهم . ويقولون انه ملاك من الملائكة العظام

فتحت عينيها وقالت : « رأيت اناساً عديدين قد مرُّوا امامي بلباس احمر ومُطرَّف ابيض » ثم سكتت وعادت الى هياجها وصلاتها . فأخذ زوجها بخوراً ووضعهُ في النار وأدناه من انفها . فتصاعدت رائحتهُ الحلوة . فلمَّا نسمت شذاه استفاقت كأنها خارجة من نوم عميق . ثم ارتمت على النار والتصق رأسها بها ولبثت دقيقة لا تبدي حراكاً واخذت تصلي وتقبل الارض فرجعت اليها حواسها . وكان في اثناء صلاتها جمعٌ من الاولاد يضحكون ويهزأون بها وهي لا تلفت اليهم نظرًا . فهذه هي الحالة الرفيعة من الكمال البدوي

وقد ذكر لي من رآها انها تُصبح يابسة كالخشبة ولا يعود اليها الرشد الَّا بالبخور المدخَّن وقد تَطَفَّلتُ يوماً وسألتها : ماذا ترين يا سلمى ؟ قالت : « وحد الله يا وليدي (تصغير ولدي) يظهر لي عالم الغيب كطفل بديع ثم تتقلب عليَّ الرؤى فاشاهد ملائكة مَرَدة رؤوسهم في السماء وارجلهم في الارض يتمثَّلون لي بصور مريعة ويضربونني على رأسي ويقولون : توبي واستغفري الله ربك انه توَّاب رحيم »

وماذا ترين ايضاً ؟ — « اراهم ملائكة الله باجمل الصور » — وهل يلبسون ثياباً بدوية ؟ قالت : « اراهم لابسين عمامة خضراء يمرُّون على ارض خضراء وعلى بساط من العشب الاخضر . يسيرون في طرق خضراء وتحيط بهم الاشجار الخضراء والدنيا كلها تتجلَّى امامي باشكال خضراء » — اين هم موجودون ؟ . قالت : « كلهم متعلقون بالله مثل نور الشمس بالشمس تابعون الله » — قلتُ : فما هو العجام الذي تذكرينهُ في صلاتك ؟ قالت : « هو جدّي وهو ملاك من ملائكة الله » . قلتُ . وهو يُظهر لك ما تريدين من الاولياء . ومتى تشائين ؟ قالت : « لا حينما يريد الله والنعم بالله » . ثم اردفت : « اني ارى الاتقياء الصالحين والاشقياء الظالمين » . وهذه البدوية المسكينة لم تَرَ المدن الزاهرة فتجول من مضرب الى مضرب وتطلب الاحسان وكم من مرَّة سمعت الشتائم ولم ترَدَّ عليها الشتيمة بل تقول : يا ولدي وحد الله

هذا شيء من مُعتقدات البدو ان بالله تعالى . ولنا عدة مباحث عن عبادة الارواح والاولياء والاشجار المقدسة والمرتفعات والذبائح سندرجها تباعاً سائلين الله ان يُوفقنا الى ما به مرضاته ونفع الاداب وهو اكرم مسؤول

حول جزيرة العرب

نظر اجتماعي للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

عسير والادريسي

قيل سابقاً انّ عسير من اليمن وانّما فصلها الاتراك عن اليمن لغايات سياسية واسم عسير مشتق من اسم قبيلة عُرفت بهذا الاسم اصلها من عنز بن وائل ذكرها الهمداني في كتاب صفة جزيرة العرب وموقع عسير شمالي اليمن تفصل اليمن عن الحجاز . وهي على قسمين قسم جبليّ وهو الذي يطلق عليه اسم عسير وقسم ساحلي يدعى تهامة . وجبال عسير مرتفعة تعرف بالسروات بينها اودية شتّى تسيل فيها المياه الزاخرة وجهة البعض منها الى الغرب والبعض الآخر الى الشرق . وقد امتاز بينها وادي بيشة بخصبه العجيب وكثرة غلّاته . قيل انّه يغلّ في السنة خمس غلّات متوالية من حبوب وبن وفواكه . وقد قسم الاتراك سنجق عسير الى سبع قائمقاميّات وهي أبها عاصمة عسير ثم خاص شمالي ابها ثم غامد ثم قنفذة التي هي مرفأ على البحر الاحمر ثم محايل ثم رجال المع ثم صبيا . واهل جبال عسير معروفون بقوتهم وبسالتهم في معامع الوغى . واصلهم يرقى الى قحطان وقسم منهم عدنانيّون . تبلغ قبائلهم ثلاثة ملايين نفساً

ذكرنا ان اسم اقليم عسير ورد لاوّل دفعة في تاريخ الوهابيين وان شيخه ابا نقطة تمذهب بمذهب الوهابيين واستولى بمساعدتهم على قسم كبير من اليمن فحكم على تلك الاصقاع الى ان قام حمّود ابو المسمار فحاربه وغلبه ثمّ قتله سنة ١٨١٤

ولمّا قدم المصريون بعد ذلك الى جزيرة العرب سيّر ابرهيم باشا سنة ١٨٢٤ فرقا من جنوده ليخضعوا بلاد عسير لدولته . لكنّ هذه الحملة لم تفز بالغاية المطلوبة . ورجعت مثلها باخيبة حملة ثانية أُرسلت في اثرها . ثم عاد المصريون في السنة ١٨٣٤ وما يليها وصمّموا النية لتذليل عسير لكنّ مساعيهم ذهبت ادراج الرياح ولم يروا بُدّا من الانسحاب عنها بعد ان فتكت المجاعة والاوبئة بقسم كبير من ذويهم وبقي شيخ عسير عائض بن موسى مالكاً على بلاده دون منازع

ثمَّ مات الشيخ عائض فخلفهُ ابنهُ محمَّد فهمَّ بتوسيع املاكهِ. ثمَّ سار في اواخر سنة ١٨٧٠ الى تهامة وطرد من مدن السواحل عمَّال الاتراك وجنودهم وضمَّها الى عسير واعلن بسيادتهِ عليها . لكن الدولة العثمانيَّة لم تُغمض على الضيم فارسلت سنة ١٨٧١ عدَّة طوابير من عساكرها تحت امرة رديف باشا فاستردَّت المدن الساحليَّة والجأت شيخ عسير الى الفرار نحو حدوده الجبليَّة . وبقي هناك خاملًا حتى وفاتهِ . ثم سكتت الصحف عن اخبار عسير زمناً حتَّى قام السيِّد الادريسي المعروف بالمهدي اليمنيّ

اسم الادريسي محمَّد بن عليّ ابن السيِّد احمد بن ادريس قيل انَّ اصلهُ من بربرة من جهات الصومال وقيل بل هو من الجزائر . ويحكى عن جدّهِ احمد ادريس انهُ وُلد ببلدة من اعمال مرَّاكش ثُم عاش في شمالي افريقية وفي اواخر عمرهِ حجَّ الى مكَّة واقام بها عدَّة سنين يعلِّم فيها العلوم الدينيَّة والتصوُّف . فدخل كثير من اهلها في طريقتهِ من جملتهم السيد محمَّد السنوسي . ثمَّ رحل الى اليمن وانقطع هناك الى اعمال الزهد ومات في صَبيا حيث يزار قبرهُ ويرقُون اصلهُ الى السلالة النبويَّة

وقد قضى حفيده المعروف اليوم بالسيِّد الادريسي قسماً من حياتهِ في مرَّاكش وهو ضعيف الحال يرتزق بالتجارة . فلمَّا اكتهل خرج من بلدهِ ليزور مشهد جدّهِ في اليمن فدخل صَبيا وثابر هناك علانية على اعمال التقى فجلب اليهِ نظار الاهلين ثمَّ قصد مصر فتلقَّى فيها العلوم في الازهر . واجتمع هناك ببعض اعداء الدولة التركيَّة فدفعوهُ الى الاستيلاء على اليمن ولا سيَّما عسير وتهامة ليخلّصهما من نير بني عثمان . فأشرب عقلهُ من هذه الافكار وعاد الى صَبيا وجعل يبثُّ الفتنة في اليمن ويتحيَّن الفرص المناسبة لتنفيذ اغراضهِ . فلمَّا انقلبت الحكومة الحميدية وأُعلن بالدستور دعا اليهِ عرب اليمن فتجمَّعوا حولهُ زرافات ووحداناً فأدى بهِ اجتماعهم الى ان يدعوهم الى الاستقلال وتحرير بلادهم من نير الاتراك فوجد لصوتهِ صدى بين الاهلين ولمَّا اكتمل عددهم اعلن بصفتهِ مهديًّا ومشى في مقدَّمتهم وهجم على الاتراك الضابطين لليمن فمزَّق شملهم

وقد وافقت دعوةُ السيِّد الادريسيّ في عسير وتهامة حركةَ الامام يحيى في صنعاء دون ان يتَّفقا لانَّ الامام يحيى من الشيعة الزيديَّة والادريسي من اهل السنَّة . لكنَّهما

بعد حين عرفا انَّ في جَمْع كلمتهما خيرًا وغايتُهما واحدة تحرير وطنهما فتناصرا على محاربة الاتراك سنة ١٩٠٩ فخاف السلطان من اتساع الخرق وارسل قوّات لاخماد الثورة. وجاء في مذكّرة نشرتها وقتئذ الحكومة التركيّة انَّ زعماء اليمنيين قطعوا المواصلات بين صنعاء والمرابط العسكريّة في الجبال. وتحقّقت الدولة انَّ غاية الادريسي والامام يحيى واحدة وهي الاستئثار بالسلطة في اليمن وعسير. على انَّ الحكومة ظلّت تأمل حلّ الاشكال بالتؤدة حقنًا للدماء. فارسلت متصرفًا وقومندانًا لعسير سعيد باشا ومعهُ جيش تحت قيادتهِ. فلمَّا وصل الى جيزان وهي مرفأ صَبيا ارسل الى الادريسي وفدًا يرأسهُ الشيخ توفيق الارناوودي ليقف على نواياهُ. وكان الادريسي لم يحشد بعد ما يعوّل عليهِ من الجنود فلمَّا قابلهُ الوفد انكر كونهُ عاصيًا على الدولة واظهر الاخلاص لخدمة السلطان محمّد رشاد وأكّد انهُ لا يريد الّا إصلاح القبائل خلافًا للامام يحيى. وكرّر اقوالهُ لسعيد باشا لمَّا حضر الى صبيا وطلب منهُ ان ترفع الدولة الضرائب القديمة عن الاهلين وتقنع بالزكاة الشرعيَّة من المحصولات الزراعيَّة والمواشي وان تتكلّفهُ بجمع الزكاة على شرط ان يأخذ هو ثلثها

فرضي سعيد باشا بذلك وسمح للادريسي بتأليف جيش من الوطنيين لتنفيذ اوامر الدولة كما زعم وكتب لهُ عَقد اتّفاق في ما طلبهُ وارسل الى قبائل تهامة وعسير كتبًا يأمرهما بالخضوع لاوامر الادريسي ليتمكّن من الاصلاح فيهم فرضوا برسومهِ. ثمَّ سافر سعيد باشا الى اليمن لمحاربة الامام يحيى الذي كان مصرًّا على ثورتهِ وانضمَّ الى الجيش المحارب هناك ليخمد الفتنة في تلك الجهات ويعيد السلام لاهلها

فلمَّا ابتعدت جيوش الدولة من عسير صفا الجوّ للادريسي وجعل ينفخ نار الثورة على تركيَّة بين القبائل فقويت شوكتهُ وامتدَّت سلطتهُ وارسل سرًّا الى الايطاليين كي يعضدوهُ في سواحل اليمن باسطولهم فاجابوا الى دعوتهِ. فما مرَّ عليهِ بضعة شهور من السنة ١٩١٠ حتّى استفحل الشرّ وصارت قبائل عسير طوع امرهِ

ولمَّا آنس من نفسهِ القوَّة جاهر بمحاربة الاتراك وارسل الامراء من قبلهِ الى جهات تهامة وعسير بعد طرد عمّالها من قبل الدولة. وفي السنة ١٩١٠ سار بجنودهِ الى مرابط الجنود العثمانيَّة فشتَّت شملهم فلم يبقَ منهم سوى المرابطين في ابها ومعهم

المتصرف سليمان باشا فحاصروهم وشدّدوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم المؤن حتّى اكلوا الهرر والكلاب ومات اكثر العسكر جوعاً

حملة عزت باشا وامير مكة على عسير — الادريسي حاضراً

واستمرّ الحصار عشرة اشهر الى ان عهدت الدولة الى عزّت باشا والى امير مكّة (سلطانها الحالي) حسين باشا بانقاذ المحاصرين وقطع دابر الادريسي فتوجّهت جموعهم المركّبة من العساكر النظاميّة ومن الاشراف والعرب وكان مع امير مكّة نجلاهُ الاميران عبدالله وفيصل فتوغلوا في جهات تهامة وعسير في ربيع سنة ١٩١١ وزحفوا ظافرين الى أبها وأفرجوا عن عساكر الدولة. امّا الادريسي فنزح من وجههم الى داخل البلاد

وقد قرأنا خطبة دولة الامير حسين يوم دخوله الى ابهـا وفي نصّها الشائق عبرة للمعتبرين وهو الذي شقّ بعد ذلك عصا الاتراك فها نحن نوردهـا بحرفها الواحد كما رواها احـد اشراف مكّة عبد المحسن البركاتي في تاريخ هذه الحملة ليرى القرّاء تقلّب الناس في سياستهم واستنادهم الى الدين حسب غاياتهم (اطلب كتابه الرحلة اليمنيّة ص١٤٣):

أيّها الاخوان اعلموا علم اليقين انهُ لولا هذه الدولة العثمانيّة وشدّة اعتنائها خلفائها بالامّة الاسلاميّة خصوصاً مولانا امير المؤمنين الحالي لاختطفتكم الدول الاجنبيّة اختطاف الذئاب للفئ المنفردة (كذا!) فـانّ جميع الدول ساعية من زمن بعيد في اضمحلال الشريعة المحمّديّة بواسطة هؤلاء المغرورين الذين يخدموها لاغراضهم الشخصيّة (كذا!). اخواني هل يرضيكم افعال هؤلاء الثلة الساعين في تخريب بلادكم باسم الحقّ ولا أدري كيف اغتررتم لهؤلاء ولامثالهم وانتم أولو العقول الراجحة والنخوة العربيّة الاصليّة. آباؤكم الاولون كانوا عزّ العرب وعنهم ورثتم الهمم العالية. ألستم ابناء التابع؟ ألستم الذي (كذا) قال فيكم جدّي رسول الله صلعم: العلمُ يمانٍ والحكمة يمانيّة؟ ألستم انتم ابناء اسلافكم الكرام الذين اشتهروا بالذكاء (كذا) الفطري والمجد المؤثل فالله الله يا أبناء الأمّة العربيّة في دينكم لا تضيعوهُ بل احفظوهُ واستظلوا بظلّ الراية العثمانيّة التي هي شعار الاسلام (كذا!) ولا تغتروا باقوال المفسدين الساعين في تنفيذ اغراض المحرّكين لهم اعداء الدين الاسلامي وانتم لطيب عنصركم وعدم معرفتكم بالسياسة الاجنبيّة تظنّون انهم انّما يخدمون الدين مع انّهم والله عن الدين بمعزل لا يخدمون الّا اغراضهم الشخصيّة مستترين باسم الدين فاحذركم ان لا تغتروا بمثل

هؤلاء الاوغاد المارقين من الدين بل كونوا مطيعين لامير المؤمنين ولتعلموا انّ من خالفهُ خالف الله ورسولهُ ومن خالفهما فقد باء بغضب من الله وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين !!

ثمّ رجع امير مكّة الى الحجاز امّا عزّت باشا فسار الى محاربة الامام يحيى فنال بعض الفوز من العصاة ودخل صنعاء. واستدعى اليهِ شيوخ اليمن وعسير وبيّن لهم ما ينتج عن مقاومتهم للدولة من الآفات لهم ولبلادهم بدلاً من ان يعضدوها في محاربتها للدول البلقانيّة الاجنبيّة. فأخذ كلامهُ ثائرتهم وهدأت الامور بعد ذلك برهة واخلد اليمنيّون الى السكينة. وكذلك الادريسيّ بقي في عزلتهِ ينتظر فرصة اخرى لمعاودة حرب العثمانيين

ولمّا انتشبت الحرب العموميّة الاخيرة تقرّبت الدول الائتلافيّة الى اليمنيين واكّدوا لزعمائهم انّهم لا يمسّون استقلالهم ان لزموا الحياد وامتنعوا عن كلّ فعل عدائي مع المؤتلفين. والمرجّح انهم الآن في راحة وسلام مع قلّة ما يبلغنا من اخبار تلك الاقطار القاصية

وجاء في خطاب الوزير بلفور في دار الندوة الانكليزية في اوائل السنة ١٩١٧ انّ السيّد ادريس انتهز فرصة الاحوال الحاضرة فرفع راية العصيان على الاتراك على خلاف الامام يحيى الذي بقي على ولائهِ لهم وسار بجنودهِ الى قنفذة على سيف خليج العرب فاستولى عليها

تجديد فنّ الجراحة على يد الدكتور كارّل

بقلم الاب رفائيل خاله اليسوعيّ

من ابعد الجرّاحين بل العلماء شهرةً الدكتور الكسيس كارّل (Carrel) الذي حاز من سبع سنوات جائزة نوبل (Nobel) البالغة ٢٠٠،٠٠٠ فرنك لاكتشافاتهِ واختباراتهِ التي اهتزّ لها العالم اندهاشاً وفرحاً فانّها والحق يقال فاتحة عصر جديد لفنّ الجراحة رغماً عن الآيات التي ارانا اياها اربابهُ في الجيل المنصرم. ولكن قبل سرد اختبارات هذا النابغة يجدر بنا ان نقدّمهُ للقراء باقوال وجيزة

من هو الدكتور كارل

الدكتور الكسيس كارل احد علماء فرنسة درس الطب في كلية ليون حيث استلفت سريعاً انظار رفاقه بتوقد ذهنه وطول فكرته وشدة انكبابه على المطالعة وبعد انجازه دروسه قصد التسهُّر بفنه فتتلمذ للاستاذ پونيه (Poncet) الذائع الصيت فكان يعود المرضى معهُ ويساعده في اجراء عملياته . ومن غريب ما اتفق له في تلك الآونة انَّ بعض الجهابذة الاجانب وفدوا الى ليون لملاقاة الاستاذ پونيه وهو غائب . فاستقبلهم تلميذهُ ورحّب بهم وقادهم في كل انحاء المستشفى بدون ان ينبس بلفظة تشير الى كونه غير الاستاذ المتغيب وعلى وجهه مسحة من الوقار يزيده كلامه الرصين تأثيراً على الزائرين الكرام . فأيقنوا انه هو الاستاذ وأعجبوا من سعة معارفه وطول باعه . وبعد ان جال بهم ساعةً كاملة بهرهم فيها بحذقه وعلمه ذهب بهم الى الدرج فقلب فيه طيشُ الشباب على رصانة العالم فامتطى كارل الدربزون كما اعتاد الصبيان وانحدر عليه كالسهم الى الطابق الاسفل . فليتصوَّر القارئ دهشة الزوّار الاجلاء وخيبة ظنهم لما رأوهُ من خفَّة طبع الاستاذ الموهوم ونزقه !

وبعد ان حاز كارل الدكتورية حدّثتهُ نفسُهُ ان يحاول السباق مع اقرانه لينال منصب جرَّاح بمستشفيات ليون . ولا يخفى ما لهذه الوظيفة من الاهمية في أعين طلبة الطب وكم يتوقون للحصول عليها . فآثرت لجنةُ الفاحصين على كارل بعضَ رُحقائه وهم دونهُ بمراحل فاغتاظ ممَّا اعتبره ظلماً فاحشاً . ولمَّا كان شديد الغيرة على حيثيته الطائر في انحاء فرنسة منذ تلك الأيام البعيدة اعني حول السنة ١٩٠٠ عزم على صيانته من كل شائبة بترك وطنه والسفر الى الولايات المتحدة حيث طلب ونال الجنسية الاميركية فسعى هناك جهدَه للحصول على منصب ملائم لذوقه وسموّ غايته فعُيّن استاذاً بمعهد روكفلر (Rockfeller) في نيويرك حيث باشر وواصل الاختبارات والدروس التي أفضت به منذ ١٩٠٧ الى اكتشافات قضى منها العجب علماء الحاققين وقد آن الاوان لعرضها على القرَّاء بغاية الايجاز

قد اسلفنا القول بأنَّ كارل جدير بان يُدعى مجدّد الجراحة فبياناً لذلك ها نحن نذكر الشأو الذي ادركته قبله ثم نروي الى اية درجة اسمى ابلغها العالم

الفرنسي ؟ جُلُّ ما توصّل اليه ذاك الفنُّ قبل كارّل ان يوقف نزيف الدم بسدّ الشرايين والعروق ثم استئصال بعض اعضاء الجسم المصابة بداء عقام اي الاعضاء غير الجوهرية التي لا قيام للحياة بدونها . ولكن هيهات ان تخيط الجراحة في مكان العضو المقطوع عضوًا آخر سليماً ينوب منابهُ . فكان الوف المرضى حتى الآونة الاخيرة يخرجون من قاعات العمليّات احياء بيد ان حياتهم في اغلب الاحيان ناقصة لنقصان احد اعضائها . وما الآن موقف النطاسي كارّل بازاء تلك الجراحة التي مرّ بها اجيالٌ ودأبها البتر والسلب ؟ قصدَ على حداثة سنّهِ ما لم يدرُ على خلَد اعظم الجراحين . قصد استنباط جراحة غير هادمة بل بانية غير خاطفة بل حابية غير مُنقصة الحياة بل منميتها . وان لم تتحقّق الى الآن كلُّ امانيهِ الكبيرة فقد دخل منها الى حيّز الوجود ما ينبئنا بدنوّ تحقيق ما تخلّف منها . وما الذي انجزه العالم الفرنسي في سبيل تجديد الجراحة ؟ اسمع واحكم

١ عمليات الدكتور كارل على الحيوانات

كلّها عائدة كما ألمحنا الى التلقيح اعني قطع بعض الاعضاء وإبدالها بما يوازيها . وهاك بالتفصيل اهمّ انواع تلك العمليّات التي تُجرَى منذ سنين بمعهد روكفلر بعد ان سنَّ قوانينها الدكتور كارّل

١ ﴿ تلقيح قِطَع العروق والشرايين ﴾ يضغط الجرّاح بملقطين على طرَفي العرق الذي يُراد بتره ثم يُقطع ويُخاط مكانه قطعةُ عرق منزوعة من حيوان مجانس للاول او قطعة شريان منه . ولا تدوم كل هذه العملية اكثر من بضع دقائق فلا يلبث ان ينتظم جرَيان الدم في العرق او الشريان الملقّح ومهما اشتدت صدمة الدماء على محل الخياطة فانّها لا تقوى على فتقها . ومن العجب ان القطع الملقحة بدلاً مما قطعه المِشرط تكون في بعض الاحيان قد حُفظت ستة اشهر ونيف في آنية مثلّجة . وبعد اسبوع من اجراء تلك العمليّات الغريبة ترى الحيوان يعطِف مرتاحاً كانهُ لم يُصب بشرط المِبضع . واذا شُقَّ جسمهُ بعد انقضاء عام او عامين ظهر العرق او الشريان الملقّح بدون ادنى اثر للتلقيح فيُظَنّ انهُ في ذلك المكان وعلى ذلك الشكل من نشأته

٢ً ﴿ قطع الاعضاء وإعادتها هي نفسها ﴾ من امثلة هذه العمليّات التي لم تكن في الحسبان ان الدكتور كارّل قطع كُلوَتي كلبة ثم خاطها فعادتا الى حالتهما السابقة ولم تتأذَّ الكلبة قطعاً مما عانتهُ بهذه العاملة القاسية فانها ولدت بعد ذلك احد عشر جروًا ومن المعلوم انّ هذا شاهد جليّ على جودة الصحة

وليس مثل تلك العملية من النوادر في معهد روكفلر فكثيرًا ما ترى فيه حيوانات قطعت منها الأُذُنان او المعدة او الذنب او الطحال الى غير ذلك من الاعضاء ثم أُعيدت كما كانت قبلًا . وربَّما صادفتَ في ممشى المعهد كلبًا اسود يثب برجل صفراء ثم تلاقي بعد هنيهة رفيقهُ الاصفر وله رجل سوداء فتفقه كيف تمَّ هذا الامرُ العجيب الذي يحدو بنا الى ذكر نوع جديد من العمليّات

٣ً ﴿ قطع الاعضاء واستبدالها باعضاء حيوان آخر ﴾ ولا يقع التبادل — كما يتضح بديهيًا — الّا بين الحيوانات التي من جنس واحد غير انه يجري بغاية السهولة والكمال كما لو أُعيد العضو المقطوع نفسه . فتُبدل على هذا النمط اغلب الاعضاء كالرجل والاذنين والانف والمعدة والكلوتين والطحال والغُدَد والذنب

٤ً ﴿ حفظ الاعضاء المبتورة من الجسم حيّةً في المثالج ﴾ . هذه ولا شك آية الآيات في اعين ائمّة الجراحين التي لم يحلموا بها سابقًا . فما اشدّ جرأة الدكتور كارّل بل ما اعظم مقدرته ودهاءه حيث انجزها لاوّل مرّة . وليس في طريقته شيءٌ من السحر بل هي غاية في البساطة . تُغسَل الاعضاء المبتورة في مائع قاتل لانواع الميكروبات ثم تُبلَّل بقليل من الماء لتبقى رطبة واخيرًا تُدخل في انابيب زجاج مُعقَّمة تُسَدُّ على النار وتوضع في المثالج بحرارة الثلج الذائب . فتبقى على هذه الحالة ليس اياماً فقط بل اشهرًا دون ان تلوح فيها علامات الحياة والنمو الى ان يُراد استخدامها لدى الحاجة للتلقيح . فتُلقى في القازلين الحارّ لإنعاشها ثم تخاط مكان العضو المبتور . فترى القلب الذي عاش اسابيع في الثلج بدون خفقةٍ واحدة . ترى ذلك القلب المقرّس المُصلَّب الذي غشاه شحوب الموت ينتعش بعد ان خيط بالعروق والشرايين ثم يحمرّ بسيل الدم ثم ينقبض وينبسط في خفقات متواصلة منتظمة كأنهُ لم يباين موضعهُ الحالي بتاتًا . فيخيَّل لك انك ترى ميتًا نُشر من قبره وعاود كل الاعمال الحيويّة بعد انقطاعه عنها زمنًا طويلًا !

٥ ﴿ حفظ الاعضاء المقطوعة من الجسم حيّةً مع ظهور علامات الحياة بل نامية ﴾

قد توصّل الدكتور كارّل الى انجاز هذه المعجزة التي شاهدها آلاف من الطلبة بل العلماء الجهابذة . والفرق بينها والعمليّة السابقة كما بين الثريا والثرى . فهناك اعضاء مصونة من الفساد في المثالج ولكنّ حياتها خافيةٌ عن الانظار بل تكاد تخفى عن عين العقل نفسه لعدم وجود علامة حيويّة ولو طفيفة . امّا هنا فالحياة منجلية في العضو المقطوع اتمّ انجلاء فلا تختلف عمّا كانت عليه قبل انفصال العضو من جسد الحيوان . ومن اغرب ما فعلهُ الفريق الفرنسي من هذا القبيل انه قطع قلب فرّوج وغطسهُ في مائع يحتوي على كمّيةٍ من الدم المجرّد عن كُرَيّاته . فتغذّى القلب بما حولهُ ونما نموّاً محسوساً بل خفق بدون انقطاع اشهرًا عديدة . واذا هُمدت حركتهُ الحيوية بعد هذه المدة الطويلة فداعي ذلك نقصان الموادّ الغذائية واختلاطها بما يفرزه العضو المبتور من الموادّ المضرّة فيكفي لانعاشه القاؤه في مائع جديد مصفّى

وفي احدى اختباراته جعل الدكتور كارّل قلبَين مقطوعين الواحد على مسافة طفيفة من الآخر وكلاهما في المائع الواقي للحياة . فبقي الاول يخفق ٩٢ مرّة في الدقيقة والثاني ١٢٠ مرّة . وبلغ بهما النموّ بعد ثماني ساعات ليس الّا الى كونهما التحما اشدّ التحام فتحوّلا الى كُتلة واحدة ذات خفقات منفردة . وامثال وقاية الحياة على هذه الطريقة لا تحصى فقد توفّق الجرّاح العالم الى حفظ الحياة في اللحم والاعصاب بل في قِطَع من الكبد والكُلية والرئة وفي قرنيّة العين بعد ان قُطعت من الجسم وكلٌ منها ينمو كانهُ بذرٌ طُرح في ارض محصبة . وهذه جميعها من المبتكرات البديعة التي لم يسبق اشهرُ الجراحين اليها الدكتورَ كارّل

ولكننا لم نخرج بعد عن دائرة الحيوانات التي هي موضوع العمليّات الغريبة التي وصفناها في الاسطر السابقة . وجلّ اهتمامنا معرفة الفائدة التي جناها النوع البشري من تلك الاكتشافات البالغ صداها الى اقاصي المعمور

٢ عمليات الدكتور كارل على الانسان

من المعلوم ان الجراحين مارسوا عمليّة التلقيح على الانسان قبل الدكتور كارّل غير انهم لم يُقدموا على اجرائها الّا نادرًا . فمن ذلك انهم اذا سُلخ جلد العنق على

إثر حرق يقتطعون قطعةً من جلد الذراع مثلًا ويلصقونها على العنق فتثبت وتنمو عليه. ومن ذلك ايضاً انهم استطاعوا غير مرّة ان يعوّضوا عن انف مقطوع بانف صناعي كوّنوه بقلذة كثيفة من اللحم مأخوذة من الجبين او الساعد. وقد اشتهر بهذا الفن اولئك الجراحون مورستان (Morestin) ودلبا (Delbet) وتوفيه (Tuffier) لكن مهارتهم ومهارة امثالهم وقفت عند ذلك الحدّ

اما الدكتور كارّل فقد بلغت به الجسارة بعد نجاحه الباهر في عمليات التلقيح على الحيوانات الى ان جاوز الحد الذي وهنت دونه عزائم امهر اقرانه. وهاك بالتفصيل اية من آياته. احترقت عينا احد الاميريكيين فسلمت اعضاء البصر الجوهرية ومع ذلك اصيب الشقي بالعمى حيث فقدت القرنيتان شفافيتهما. فأتي به الى مستشفى فيلادلفية وفحصه الدكتور كارّل فصمم النية على ان يلقح على كل من العينين الكفيفتين قرنية سليمة وذلك حالما يتوفق الى الحصول عليها. فقيضت له العناية لاهية بعد اربعة اشهر ان يقلع عيناً اعورّت فنزع قرنيتها ولقحها على احدى عيني الضرير كما يبدل الساعاتي زجاج الساعة المكسورة وثمانية ايام بعد ذلك رُفع الضماد وبتبع النظامي حيث رأى امنيته تحققت على غاية ما يروم فان الاعمى الذي كان حُرم منذ سبع سنين لذّة النور صار ينظر بالعين الملقّحة

ولما درى جراحو الخافقين بنجاح تلك العمليّة الجريئة وكثير من امثالها سلكوا متطوعين على الطريق الجديدة التي مهّدها لهم الدكتور كارّل فانتشرت عمليات التلقيح العضوي في كل الاقطار. ولنكتفِ بوصف التلقيح الذي اجراه الدكتور دلبا (Delbet) على شخص قاسى عشر سنين امرّ العذاب من كسر عظم الفخذ في عظمه. قطع الجرّاح كسرة من قصبة الساق الصغرى وادخلها في ثقبين ثقبها على جانبي الكسر كما يصنع النجّار اذا اراد ترميم قائمة مكسورة لطاولة. فبرعمت كسرة العظم الدخيلة والتأمت جانبي العظم المصدوع اشدّ التأم. فشفي الكسيح بعد خمسين يوماً مستندا على عكازة ثم اكتفى بعصاً بعد ستة تقريباً واخيراً مشى بدون سند

ومن البديهي انه لو تيسر للجراحين ان يجروا هذه العمليات على بني آدم بمثل جسارتهم في مباشرتها على الحيوانات لطال جدول فتوحات فنّ الجراحة الجديد ولكن الذمّة لا تسمح بتعريض الانسان الى خطر شديد ان لم تكن هناك ضرورة

ماسّة . وعلى كل حال فانّ عمليّات التلقيح العضوي لم تزل في السبع السنين الاخيرة تنمو عددًا فيسوغ لنا ان نتفاءل بها خيرًا لمستقبل الجراحة الكارليّة . وكما ان العالم پاستور جدد الطبّ في اواخر الجيل المنصرم باكتشافاته المشهورة في عالم الميكروبات الذي فتحه للعلماء والاطبّاء كذلك كارل فتح للجراحين عالم التلقيح الذي لم يطرق بابه احد من قبله . فاستحق ان يحصى مثل پاستور في عدد اعظم المكتشفين والمحسنين الى كل النوع البشري ونالت بكليهما فرنسة وطنهما مجدًا مؤثلًا يضاف الى ما احرزتهُ من الفخر بسبق ابنائها الى كل عمل شريف وعلم نافع

رجل الخير المرحوم صالح نعمة

لحضرة الخوري مبارك الرشماوي خادم قرية بتاتر والمنصوريّة

أصله ونسبه

في غرّة شباط الاخير رُزي الدين والوطن معاً بوفاة المرحوم المبرور الكاڤليار صالح نعمة اللبناني الماروني مزوّدًا مرارًا بالاسرار المقدسة . اصل هذه العائلة من مشمش قطنت رويسة النعمان ووالدهُ يدعى نعمة كان فاضلًا ورعاً كريم الاخلاق عيّنتهُ حكومة لبنان باول تشكيلها شيخاً على قريتهِ بموجب بيولوردي . وكان مواطنوه يدعونه نعمة السعيد لكونهِ اوّل من تملّك في القرية . فكان فسيح الصدر رحب الدار طالما ردّد مواطنوهُ آيات أفضاله عليهم مدّة حركات سنة ١٨٦٠ ووالدتهُ نهّول كانت ممتازة بفضائلها وتقواها الباهرة وقد لقّبها مواطنوها بالقديسة نظرًا لميراثها وسماويّة روحها . فمن هذين الوالدين الفاضلين ولد صاحب الترجمة المرحوم صالح نعمة

مبادئ التجارة

ما بلغ سنّ ١٤ حتى توفي والدهُ تاركاً له عقارات بقيمة الف ليرة وديوناً عليه نحو ثلاثين الف غرش فشمّر صالح عن ساعد الجدّ ومال الى تجارة الشرانق والحرير ودرسها متدرّجاً من وكيل سماسرة الى ان صار يُعدّ بصاف اصحاب المعامل الحريرية

الكبرى في جبل لبنان من حيث اتقان الصناعة بكامل فروعها والاسم المطار . وادغم اولاده معه سنة ١٨٩٠ بالعمل تحت عنوان «صالح نعمه واولاده» فقدت مضافرة بنيه له تاجاً متمماً لعماله لانهم لا يقلون عنهُ مقدرة وحنكةً وثباتاً . وقد برهنوا فيما مرّ من السنين السوداء على تجارة هذا الصنف على ما تقدم بتخلصهم من خسائرها الفادحة . فكان حريزه ممتازاً يزاحم اجود الماركات . وطالما تكرر سفره وسفرهم الى مدينة ليون اكتساباً لتحسين هذه الصناعة وتمكين علاقاتهم التجارية والودّية مع عملائهم وقد كان يؤدي هؤلاء العملاء بحقهم احسن شهادة . وقد ردّدها بعض ذوات بيروت العائدين من ليون فروى انه سمع احدهم يقول انه يحترم محل صالح نعمة واولاده احترامه لاحسن بنوكة بيروت من حيث الاستقامة والمعرفة والامانة

ثمّ بنى له معملاً للحرير فخماً في قريته مغوايا متقن الصنع والهندسة تحرّك آلاته بقوة ضغط الماء واضاف اليه بمدة جملة سنوات بعدورة الاجارة نحو اربعة معامل كان يشغلها ويستفيد منها الارباح الطائلة . فتوسّع بشراء الاملاك حتى اصبح يُعدّ من كبار الملاكين في الجبل . واذ رأى ان معمل حرير معاصر بيت الدين بتمام الموافقة لصنعته نظراً لمركزه وحسن موقعه لسواق الشرانق فاشتراهُ مع عقاراته وكان له منه كما افتكر حسن الاستنتاج وقد زاد على حسنه تحسيناً حسب مقتضيات هذا الفن من الاتقان

صورته الشخصية ووطنيته

قد كان رحمه الله من معاصري رستم باشا متصرف الجبل في صباه فاوثق ذلك الحاكم باخلاص المرحوم ومقدرته كان يعهد اليه باصلاحات في ناحيته . فكان المرحوم يقوم بها احسن قيام . وبمثل ذلك كان نعوم باشا يكلّ اليه بواسطة صديقه الامير الكبير مصطفى ارسلان برّد الله ثراه قضاء بعض المهامّ بين حكومة الجبل وولاية الشام فكانت اعماله مكلّلة بالنجاح . اما جرأته الادبيّة فهي مشهورة فقد كانت تدفعهُ الى ان يناهض كل خلل بوجه اولياء الامور فلم يمل قطعاً الى وظيفة في الحكومة انما كان يخدمها الخدمات الجلّى وهو في اعماله ومعاملهِ . وله ببذا الموضوع مآثر وضّاءة وطرائق مشرة كانت تتجلى فيها روحه الكبيرة وتضحياته العظيمة وتفانيه بحق

اصحابه (١ فكان الوطنيّ الصادق المخلص لربّه ولبلاده المحترم القول والرأي وكان متصرفو الجبل وقناصل دولة فرنسة الفخيمة يجلّون مبادئهُ ووطنيّته واخلاصهُ ويكررون زياراتهم له

اخلاقه ومعارفه مبادئه وتربية اولاده

قد كان رحمه الله ذا ضمير سليم وقلب مفتوح واخلاص وشجاعة كثير الاستقامة شهماً وفيًّا محبوباً كريماً لم يتلقن من العلوم سوى بسيطها تحت سنديانة القرية على كاهنها واتَّا ذكاؤه الغريزي كان له المعلّم الأهمّ لو جالسته او قرأت محرراته تحكم عليه انه من متخرجي المدارس كان ذا مبدإ قويم يتطيّر من الخنوث في الوعود وذا نفس أبيّة تتنزّز من كل ما يهين الحق والناموس وذا مروّة وحميّة نادرتين ينتصر للمظلوم بشدة لغاية رفع الظلم عنهُ كأنَّ ذلك الظلم عليه فليس بهيّاب ولا وَجل . كان من انصار السلامة ومحبيها يقضي بين المتخاصمين وبخاصّة اقناعهِ وتجرّده كان مكفول النجاح . وكان اصحابه العديدون لدى حصول ملمّات عندهم يستنجدون به فكان يلبّي بارتياح دعوتهم ويصرف قضاياهم مهما كانت مهمة . ودورٌ عديدة في هذا الجبل تردّد مدى الدهر افضال هذا الشهم بارجاع الطمأنينة والسكينة لداخليتهم ببذولات عنايته ومروّته . ومن مبرّاتهِ انَّهُ قرَّر استدعاء طبيب وهو الدكتور الشهير مرشد افندي خاطر الى قريتهِ مغوايا على نفقتهِ ليجري فيها معاينة طبيّة كلّ خميس لمساعدة كل من لم تمكنهم احوالهم من دفع اجور الاطبّاء سواء كانوا من مغوايا او من القرى المجاورة . فتمّ ذلك سنة ١٩١٣ . هذا ومآثر عديدة يطول ذكرها وتعرب عن

(١ لم يمكن تعداد نفائس خدماته لانَّ معظمها لمجد ونفع النصرانية التي كان مرّة بعد اخرى يتهدّد حقوق رجالها بعض ذوي الغايات ولا نذكر كذا تفصيلات لأنها تمس كرامة جيراننا غير النصارى فاكتفينا بهذا الاطلاع . وهذه واحدة من مئات : دُعي كهنة الجوار لمأتم رجل في عجدليا مسيحي فتقدّم الدروز امام الصليب فحصل لذلك عراك بينهم وبين الكهنة ادى الى المضاربة فسطّر الكهنة عريضة باسم المرحوم يشكون فيها الحالة وقدّموها لحضرة الحادثة فانفذ ما احد اولاده الى يوسف باشا فرانقو مذيّلاً عليها فما اصبح الصباح الّا « والبرطان » يدوي في عجدليا وخيال بك الطرابلسي مطوقًا البلدة بجنوده حيث اعتقل نحو ١٧ شيخًا درزيًّا وصحبهم ليت الدين حيث زُجّوا في السجن ولم يفرج عنهم الّا بعد مضي ٣ اشهر بمناسبة عيد الجلوس . . وهذه هي الصغيرة . . . وأين هذه من سواها :

مفاعيل تلك المروّة النادرة. فقد كانت يد الرب تسبق يديه في قضاء كل مشكل عضال وعلى تلك المبادئ السامية ربى بنيه الثلثة فكانوا على صورته طبق الاصل

عبرة الدينية

كان يختلج في صدره نفس سامية كلها شعاع ينبعث منها روح الدين والوثوق بالله فاذا زرت محلّاته في مغوايا او في معامل بيت الدين تلقى ماصوقاً على رتاج داره ومعامله صفيحة قلب يسوع الاقدس . واذا تصفحت دفاتره تقرأ باول كل منها هذه الفقرة " ما توفيقي الا بالله إلهي " واذا تصفّحت وصولات المسواق المطبوعة تستهلّ بها كلمة "يسوع ومريم وماري يوسف" بالافرنسية واذا دخلت عمق قلبه هناك الضياء . حمل والدتهُ الفاضلة رغماً عن شيخوختها الى زيارة الاماكن المقدسة ومنذ نشأته وضع بيته واعماله تحت حماية مريم العذراء . وقد كان شديد الحرص على تهذيب بيته على هذا الاساس المكين فحصل على الحظوة الفائقة باعين بطريركية الروم الكاثوليك وعهد اليه رئيس مدرسة عين الوز الاب جيروم ابان سفره الى الاستانة بادارة شؤون واملاك المدرسة فاجاد احسن اجادة وقدّم الرئيس له بعد عوده تقدمة ماليّة فرفضها شاكراً فاقام في قريته جبّانة وساعد بتجديد بناء معبدها وشيّد في مغوايا معبداً نفيساً لمريم العذراء وزيّن جداره الداخلي بمخرّبات الخشب والتماثيل مما هو فريد في بابه واستحضر من نيثرونو تمثالاً لهذه البتول الطاهرة بطول مترين من رخام آية في الإبداع . فقد خسر الاكليروس عامةً بوفاته صديقاً حميماً وابناً مجاهداً حق الجهاد دفاعاً عن شرفهم فما كان احد يجسر ان يتفوّه باساءة بحق اكليريكي أمامه ؟ وله بهذا الموضوع مواقف الأسد . قد كافأه قداسة البابا بيوس العاشر بمنحه وسام مار غريغوريوس الكبير من رتبة كافاليار اعتاداً على محرّرات صديقه الحميم وابيه المغبوط ماري الياس بطرس الحويك البطريرك الماروني المبجّل . فكان في ختام كل نهار عمل بعد ان يغلق باب معمله يفتح باب الكنيسة لدخول العملة اليه لقيامة الصلاة العامّة شكراً لله . ولذلك كانت المراكز الدينية المسيحية كافةً مع القصادة الرسولية تجلُّ مقامه وتعتبره من اخلص واعزّ ابنائها وفي ما لديه من محرراتهم النفيسة دلالة ساطعة على تقديرهم لفضله وحسن مساعيه

صوائر زمان الحرب

كنت اسمع من الفقراء العائدين من مغوايا ابان الحرب الدعاء والعرفان لهذا البيت وكانوا ينادون بأعلى اصواتهم : لو كان على مسافة كلّ اربع ساعات بيت سخي مثله لما مات فقير . لم يصدّ طالباً ولم يُرجع متوسلا خائباً فباول شهر الحرب انفذ الى قرى ومزارع الجوار اكياس الطحين حيث وزّعت على فقرائها بواسطة اصحاب له وواصل كل سني الحرب هذه المبرّات بكل سخاء وامر بزرع اراضيه المشجرة ليضاعف التوزيع . فكانت رجاله تتراكض وراء الحبوب وكانت داره مأوى الايتام والاطفال والارامل . وفي خلال سنة ١٩١٧ يوم عيد الميلاد امر والديه نعمة ونعمان ان يحملا على ظهرهما الخبز ويصعدا الى القرية لمؤاساة اهلها وتوزيع الاقوات للبائسين فيها ومثل هذا العمل تكرر في عيد رأس السنة ومن الحسنات التي تمكّن المجال المرحوم كتمان توزيعها ستة قناطير قمح وزّعت على المبؤسين عن يد كهنة الرعايا . وقد دهش المندوب البطريركي حضرة الخوري اغناطيوس مبارك المرتقي الآن الى رئاسة اساقفة بيروت في اثناء زيارته القرية لتوزيع الاحسان البطريركي مما رآه وسمعه من شكر الكبار والصغار لصاحب الترجمة وحمل كل ذلك الى غبطة البطريرك ايده الله

ومن مآثره انه سهل لمتصرفية الجبل انشاء ثلثة ملاجئ للفقراء في قضاء الشوف في عين عنوب وبريح ومغوايا باحضار راهبات ماري يوسف لادارتها . اما ما تبرّع به لهولاء الملاجئ فتعلمه حضرات مديراته الفاضلات والقصادة الرسولية وما تكبّده هذا البيت الكريم من العناية بتلك الادارة والمحافظة التي تنمّ عن ايادٍ وعناء قلب عظيمين . معلوم ايضاً من الرابورت المتقدم لحكومة بيروت من رئاسة واديرة راهبات ماري يوسف فقد كان كالعطشان اينما وجد المياه يباجمها واينما وجد سبيل للمساعدة مدّ يده الكريمة . وبذيله من صورة هذا الرابورت النفيس ما له علاقة بالموضوع (١ .

(١) وهذا نصّ الرابورت في اصله :

Nous soussignées Supérieure des Sœurs de St Joseph de l'Apparition et religieuses ex-directrices des 3 hospices du Schouf : Ain-Enoub, Mogwaya et Brih déclarons bien haut que Monsieur Saleh Némé ainsi que son honorable famille nous ont rendu durant la guerre 1914-1918 des services innombrables et éminents, en soula-

واخيرًا : قد قيل ان ألسنة الخلق هي مفاتيح الصدق فبيّن ذلك اسف نبلاء الطائفة الدرزية الكريمة وعامتها من فقد هذا الكريم نظرًا لصدق معاملاته معهم وكامل صفاته . فاجماع الاحترام لكذا رجل من كل الطوائف لسان فصيح وبرهان واضح لثبوت مكرماته

وما طار منعاهُ حتى تقاطرت الجماهير من النواحي لحضور مأتمه . فنُقلت جثته بكل اكرام الى مدفن عائلته . فلمّا بلغ عاليه مرور النعش في ضواحي طريقها الى بحمدون تألب جمهور غفير من المسيحيين تتقدمهم الصلبان ومن كرام الدروز ملاقاةً له وكذلك من اهل بحمدون مع لفيف الاكليروس . وبعد ان أُقيم له جنّاز حافل دُفن باكرام في مدفن العائلة الخاص ضمن الكنيسة وكان الاسف شاملًا الجميع وبين المؤبنين انتصب جناب الشيخ هاني عبد الله واستزف العبرات برقيق عباراته الحسيسيَّة وعقبه احد شبان الدروز المائدين من المهجر ممّا كان له ابلغ تأثير . وبعد مضي اسبوع اقيم له في مغوايا جناز اسبوعي حافل حيث دُعي كافة الكهنة واهالي القرى المجاورة وفي الاحد الثالث اقام له اولاده جنازًا ثالثًا حافلًا في محله الثاني معاصر بيت الدين ولتعذُّر سيادة الحبر الفضال المطران اوغستين البستاني الكلي الشرف عن الحضور لموانع صحيَّة اوفد من قبله نائبه وبعد ان وفّى بلسان سيادته حق الفقيد من التأبين تلا في الكنيسة مرسوم التعزية باسم انجال الفقيد من غبطة البطريرك الماروني المبجل وفيه ما فيه من آيات الاسى والحب والانعطاف فكما وفّى الفقيدُ عائلته من حقوق الحب والعطف الابوي هكذا وفّى

---

geant la misère du pays et en dépensant son temps et son argent, même au risque de sa vie pour le bien commun.

Il a toujours fait preuve d'une grande noblesse de caractère et d'un désintéressement vraiment rare.

Nous ne saurions assez lui adresser des félicitations pour sa conduite courageuse et sa moralité exemplaire.

En foi de quoi, nous lui donnons de tout cœur cette approbation écrite.

Sr Madeleine Supérieure — Sr Victoire directrice de Brih — Sr Françoise directrice de Vin-Emoub — Sr Louise directrice de Mogwaya

وبتلوه تصديق القنصلية الرسولية من امضاء السكرتار حضرة الاب سيربل كوسا بتاريخ ٢٢ شباط ١٩١٩

اولاده بالمبادلة حقوق الوفاء البنوية وكما عاش سعيداً شريفاً هكذا مات سعيداً شريفاً رحمه الله عداد مبراته وحسناته امين

مناعي آل الوطن في أثناء الحرب

نظر عمومي للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٢ ضحايا الاتراك وشهداء حب الوطن (تتمة)

عزيز فيعاني هو عزيز ابن نعمه فيعاني . كان تخرّج في كليّتنا فامتاز بذكائه واجتهاده . ثمّ صار ترجمانا اوّل لقنصلاتو روسية الجنرالية في بيروت . فكانت رتبته هذه الداعي الوحيد لنفيه في اوّل الحرب بامر جمال باشا وانهاء بكر سامي بك . لكنّه امكنه ان يعود الى وطنه مرّة اولى من حلب ثمّ مرّة ثانية من الشام بالوسائط ودفع الغرامة حتّى نفي مرّة ثالثة مع شقيقه وديع افندي الى سيواس ومنها الى توقات فكانت هذه المشقّات مع سوء معاملة المأمورين الاتراك مدعاة لمرض التهاب الامعاء الذي أصيب به فأودى بحياته في غرّة حزيران سنة ١٩١٦ . وظنّ البعض انّه مات مسموماً . وكان المرحوم من رجال الجد والنشاط محبوبا من الجميع لطفه واستقامته

الياس الخوري مات منفيًا في حماة لما اصابه فيها من الضيق والكدر سنة ١٩١٧ . وكان اشتهر في التعليم في عدّة مدارس مباشرةً بالمدرسة الوطنيّة التي انشأها في بيروت بطرس البستاني ثمّ في مدرسة طائفته المعروفة بالثلاثة الاقمار . وتوفي اخوه جبران في ايّار ١٩١٨ وكان رسّاما ماهرا وحفّارا للصور حاذقا وكان كلاهما من افاضل الروم الاوثذكس

اسكندر صفا ومثل اغتالتهم حوادث الحرب المرحوم اسكندر صفا من اعيان دير القمر كان نفاه جمال باشا السفّاح الى الاناضول وبقي في النفي الى ان قهرت تركية وطلبت الهدنة فعاد الى وطنه عن طريق الاستانة فاصابه فيها مرض الحمى الاسبانيولية فتوفاه الله في اول شهر كانون الاول سنة ١٩١٨ متمما واجباته

الدينية في عمر ثلاث واربعين سنة . تولى رئاسة المحاكم في لبنان مدة طويلة في قضاء جزين وكسروان والمتن واظهر في كلها منتهى الاستقامة والذكاء والنشاط وكان ممتازاً في نزاهته وجرأته لا يهاب عند الحق احداً من اصحاب النفوذ حتى انهُ خالف رأي متصرفَيْن لبنانيَّيْن في عدَّة امور وأا توعَّدهُ واحد منهما لاستيائهِ من حكمهِ لم يبال بذلك الا انهُ اخيراً وثق بهِ جداً لما رآه من ثباتهِ وصلابته وكان على جانب من العلم بالشرع والقانون ويحسن من اللغات الانكليزية والفرنسارية والعربية بفروعها وله سعة اطلاع في الرياضيات لا سيما في الجبر

٣ الأدباء والصحافيُّون والكتبة

﴿ الشيخ شبلي نعمان ﴾ توفي في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ وله من العمر ٥٨ سنة . احد علماء المسلمين في الهند . وقد امتاز هناك بين مواطنيهِ ببلاغتهِ في الكتابة اشتغل اولاً بالتعليم في كليَّة عليكده ثمَّ ساح في البلدان فاتَّسعت افكارهُ وادرك ما يحتاج اليهِ الاسلام من الاصلاح فحاول ان يخرج مداركهُ الى حيِّز العمل فعُدَّ من زعماء المصلحين . ولم يثنِ عزمهُ ما وجدهُ من المعاكسة في تحقيق امانيه حتى نسبهُ البعض زوراً الى الالحاد . وقد ألَّف عدَّة كتب في الفلسفة والتاريخ واللغة في العربيَّة والفارسيَّة والهندية حال الموتُ دون نشر كثير منها

﴿ نقولا رزق الله ﴾ كان شاعراً مطبوعاً متفنناً غزير المادَّة تروى لهُ عدَّة منظومات حسنة . وقد نقل الى العربيَّة عدَّة روايات نشرها في مجلَّتهِ الروايات الجديدة . توفي في مصر في نيسان سنة ١٩١٥

﴿ خليل سركيس ﴾ من اكبر انصار الآداب وخدَمة الصحافة في بلاد الشام تشهد لهُ بذلك مطبعتهُ الادبيَّة التي انشأها ونشر فيها ما لا يُحصى من المطبوعات المفيدة في كلّ فنّ (راجع المشرق ٤ : ٢٢٤ — ٢٢٩) . وقد تولَّى نشر عدَّة جرائد ولاسيَّما جريدة لسان الحال الشهيرة التي خدمت الوطن باخلاص نحو ٤٠ سنة . وكان صاحبها قد تخرَّج في المدارس الاميركيَّة وتمذهب بمذهب اساتذتهِ لكنهُ بقي معتدل الخطَّة محباً للسلام مؤلَّفاً للقلوب . كانت وفاتهُ احدى آفات الحرب في ١٩ ايَّار ١٩١٥ ولد في عبيه من لبنان في ٢٢ ك ٢ سنة ١٨٥٠ . وكبر المصاب على اسرتهِ

الكريمة بوفاة اختهِ ساره سركيس في يوم موت اخيها فدفنا في مشهد واحد (اطلب ترجمتهُ في تاريخ الصحافة العربيَّة للفيكنت فيليب دي طرَّازي ٢ : ١٢٩) . وللمرحوم عدَّة تآليف ما عدا كتاباتهِ في اللسان نخصّ منها بالذكر تاريخ القدس الشريف وكتاب العادات ورحلة امبراطور الالمانية وسلاسل القراءة . هذا فضلاً عن خدمهِ المشكورة لترقية الصناعة لاسيَّما الطباعة العربيَّة . وقد خوَّلهُ الله ولدًا يجري على آثارهِ في كلّ مزاياهُ الطيِّبة

﴿ عسَّاف بك الكفوري ﴾ ولد في كفر زبد من اعمال البقاع سنة ١٨٨٢ وتعلم في الكلية الشرقية في زحلة وعلم فيها وفي المدرسة العلمانية والكلية الاميركية في بيروت مدة اثنتي عشرة سنة وحضر دروس مكتب الحقوق الفرنسي . وكتب في كثير من المجلات وحرر المهذَّب وعرَّب ست روايات نصفها تمثيلية والف جملة كتب في الصحة والتاريخ والتعليم ونظم ديوانين واجاد في الخطابة والتمثيل . توفي في ٢٤ ك١ سنة ١٩١٥

﴿ الشيخ ابرهيم الحوراني ﴾ ولد في حلب سنة ١٨٤٤ ونشأ في حمص والشام وتعلم في مدرسة عبيه وجاء بيروت سنة ١٨٧٠ وعلم في كليتي الصبيان والبنات الاميركيتين وفي المدرسة البطريركية وحرر جريدة النشرة الاسبوعية وتولى تصحيح مطبوعات الرسلين الاميركان وعرب والف كتباً عديدة ناهزت الثلاثين نخص منها بالذكر ردَّهُ الحسن على مذهب دروين في كتابهِ المتون الحقّ اليقين في الردّ على بُطل دروين وترك ديوان شعر كبير نفيس وامتاز بالرياضيات واحكم عدة علوم . توفي في ٢ شباط سنة ١٩١٦

﴿ ابراهيم حادر ﴾ كانت وفاتهُ في ٩ ايَّار سنة ١٩١٥ في شيخوخة صالحة . من اكبر خدماتهِ لوطنهِ انشاؤهُ اوَّل مكتبة في بيروت دعاها بالمكتبة العموميَّة وذلك في السنة ١٨٦٣ ومع قلَّة بضاعته من الآداب في ذلك الوقت تمكَّن من جمع كتب عديدة ضاقت عنها مكتبتهُ . وكم نقَّبنا فيها فوجدنا من المطبوعات النادرة والمخطوطات الفريدة التي تزين مكتبتنا الشرقية . وقد احتفل بيوبيل المكتبة العموميَّة في السنة ١٩١٣ فطبع عدد خاصّ من قائمتها تذكارًا . كان المرحوم ابرهيم انيسا لطيف الطباع من اتقياء طائفتهِ واحد اعضاء اخويَّة الامّ الحزينة محسناً الى الفقراء ساعياً

في تهذيب الصغار ممتنياً بمأوى طائفته . خلفهُ في اشغالهِ ولداهُ الاديبان سليم افندي صاحب المكتبة العموميَّة ويوسف افندي منشئ المطبعة العلميَّة وكلاهما من الافاضل

﴿ رزق الله سركيس ﴾ كان ايضاً من الكتبيين النشطاء والساعين في تنشيط الآداب مع الاستقامة في المعاملات والاعتصام بعروة الدين الوثقى . توفي في ٦ آذار سنة ١٩١٦

﴿ امين الخوري ﴾ توفيَ في دمشق سنة ١٩١٦ مستخفياً من وجه الدولة العثمانية . درس مدَّة في كليَّة القديس يوسف ثمَّ انقطع الى الطباعة وشغل المكاتب مع اخيهِ خليل الذي كان اكبر منهُ سنًّا وارجح عقلاً . وقد نشر بعض المطبوعات المدرسيَّة بالعربيَّة والفرنسويَّة . ثم خلف اخاهُ في ادارة المكتبة الجامعة وباشر بطبع بعض الصحائف كدليل بيروت وجريدة العثماني . وسكن مدَّة في الاسكندريَّة فنشر فيها جريدة الاعلان . وكان خفيف العقل قليل التروّي انحاز مدَّة الى الماسونية مؤملاً منها خيرًا لكنَّهُ جحدها في ساعة وفاتهِ في مستشفى الراهبات الالمانيَّات حيث طلب من ذات نفسهِ كاهناً فتمَّم كلّ واجباتهِ الدينيَّة

﴿ دكتور شعيب ﴾ اغتالتهُ المنون وهو في زهرة شبابهِ في ١٢ تمّوز ١٩١٦ في دمشق الشام وكان ذهب اليها سعياً في امور مدرسة الثلثة الاقمار التي كان تولّى تدبيرها وكان المرحوم احد تلامذة مدرستنا الكليَّة ذا همَّة واقدام على العمل . لمَّا رأى ما صارت اليهِ المكاتب الوطنيَّة بصادرة الاتراك للمدارس الاجنبيَّة تحفَّز لمساعدة ناشئة طائفتهِ في مواصلة دروسهم واستدعى لذلك بعض الشبَّان الذين اقتبسوا العارم معهُ في كليتنا فنفخ في مدرسة الثلثة الاقمار روحاً جديدة جاء الموت فأخمدها

﴿ الدكتور غصن الحاوي ﴾ ولد في الشوير سنة ١٨٥٢ وخسر نظره في حداثته وسافر الى انكلترا متجاوزًا العشرين من عمره فتعلَّم في مدارس العميان اشغالهم واحكم اللغة الانكليزية ورجع الى سوريا فانشأ مدرسته في بيروت لحرومي النظر ثم عاد ودخل مدرسة ادنبرج الجامعة في بلاد الانكليز يتلقى دروسها بالسمع وشرع يلقي محاضرات اذاعت صيته في سكوتلندا وادَّى امتحاناً لدى مدرسة وسليان الجامعة ونال منها شهادة دكتور . وبعد ان قضى في كندا زهاء عشرة اعوام جاء لبنان وسكن بلدته الشوير وعاش فيها يخدم مذهب البروتستانت

وتوفي في ٢٢ تمّوز سنة ١٩١٦

﴿ الدكتور دانيال بلس ﴾ هو رئيس المدرسة الكلّيّة الاميركانيّة سابقاً ووالد المستر هوَرَد بلس الذي خلفهُ في منصب الرئاسة. توفي في ٢٨ تمّوز سنة ١٩١٦ وكانت السنة الخمسين لانشاء تلك الكلّيّة التي لهُ الفضل الكبير في تأسيسها وصار رئيسها الاوّل مدّة ٣٧ سنة (١٨٦٦—١٩٠٢) فادارها بحكمة وعزم. على اننا نأسف لكونها صارت مركزاً لبث الروح البروتستاني ونشر حرّيّة الافكار فكانت مقالاتها احد الدواعي لانشاء كليّتنا الكاثوليكيّة ومدرستنا الطبيّة . كان مولد الدكتور دانيال بلس سنة ١٨٣٢ وجمع في شخصه مجمل صفات الاميركيين من إقدام ونشاط وثبات على العمل رغماً عن تقلّب الايّام. وبينما نحن نحرّر هذه الاسطر اذ علمنا بكل اسف وفاة ابنه في اميركا فأُصيبت الكلية الاميركيّة بموته بضربة أليمة لما كان عليه هذا الفقيد من الصفات الحميدة والآداب وحسن التدبير . ألهم الله ذويه ومرؤوسيه تعزيةً وصبراً جميلاً

﴿ المعلم خليل الخوري سركيس ﴾ توفيَ المرحوم خليل في عبيه مسقط رأسه في ١٥ ت ١ ١٩١٧ وكان مدّة لا تقلّ عن عشرين سنة معلماً في المدارس الخارجيّة اللاحقة بكلية القديس يوسف ولهُ عدّة قصائد في الشعر الزجلي وقد اشتهر بتقواه وحسن تديّنه اذ خدم اخوية الام الحزينة في كليّتنا بصفة كاتم لاسرارها مدة ١٥ سنة . وهو شقيق المرحوم الخوري يوسف سركيس الذي اشتهر بتقواه وغيرته في بلدته عبيه وانشأ فيها اخوية الحبل بلا دنس للرجال والنساء. وتوفي في ٢٣ آب ١٩١٦

﴿ ظاهر خيرالله ﴾ هو الشيخ ظاهر خيرالله عطايا صايبا ولد في الشوير سنة ١٨٣٤ وبعد ان تعلّم مبادئ القراءة اشتغل بنا ١٢ عاماً ثم ذهب الى مدرسة عبيه بسن ٢٥ ولكنه لم يمكث متعلماً فيها الّا سنةً ونصف فأخذ يدرس لنفسه ثم علّم في كثير من مدارس سوريا الابتدائية والعالية وكتب في مدة صحف والف نحو اربعين كتاباً في الرياضيات واللغة والقواعد والدين بعضها جدليّا وكان يشتغل في المحاماة في خلال التعليم . توفي في بيروت في ٢٨ ايلول سنة ١٩١٦ . وقد قرأنا في المشرق عدّة تآليف من قلمهِ كلمحة الناظر في سلك الدفاتر ورسائله اللغويّة وكتابه الفريد المسمّى بالادلّة الغرّاء في سموّ شأن مريم العذراء. زيّف فيه المزاعم البروتستانيّة

باجلى برهان . وقد اوقفنا على كتابهِ الاخير في بتوليَّة القديس يوسف ردًّا على مطران ملَّتهِ السيد روفائيل هواويني في مجلَّة الكلمة وعلى بعض تآليف اخرى فريدة

﴿ حنَّا الخوري ﴾ هو حنَّا بن جبرائيل الخوري وشقيق خليل الخوري صاحب حديقة الاخبار . توفيَ في ٢٥ شباط ١٩١٧ . تولَّى مدَّة منصب قائمقام في الكورة وتعيَّن عضوًا لمجلس الاستئناف في بيروت . لهُ مقالات وخطب في جمعيَّة زهرة الآداب وفي الحديقة ولهُ منظومات ايضاً وقد اعتنى بجمع آثار اخويهِ خليل وسليم

﴿ نجيب غرغور ﴾ توفي في الاسكندريَّة بتاريخ ٢٧ شباط سنة ١٩١٧ بداء السكتة اثناء تأدية امور وظيفتهِ في ادارة البواخر الخديويَّة وعمرهُ ٥٤ سنة . كان من طائفة الروم الكاثوليك صادق الايمان . وكان منشئاً بليغاً خدم الصحافة في القطر المصريَّ سنين عديدة فحرَّر في عدَّة جرائد فصولاً مستحسنة . ومنها ما تولَّى انشاءهُ

﴿ محمَّد ابو عزّ الدين ﴾ من الطائفة الدرزيَّة . كان كاتبَ ضبطِ دائرة الحقوق الاستئنافيَّة في جبل لبنان ثمَّ تعيَّن رئيساً لمحكمة الشوف وكان من ادباء الوطن المعدودين . وقد نشرنا لهُ في المشرق (٢ [١٨٩٩] : ٥٣٦) مقالةً حسنة تحت عنوان «شهيد العلم» . وكثيرًا ما راسل جريدة البشير وافاد القرَّاء عن احوال لبنان . توفيَ في آذار سنة ١٩١٧

﴿ المعلِّم ناصيف الزغزغيّ ﴾ توفَّاهُ الله في شهر ايَّار من السنة ١٩١٧ في حمَّانا وكان في اول الحرب يعيش معتزلاً في وطنهِ فالوغا ومات خاملاً بعد ان علَّم في مدرستنا في بكفيَّا نحو خمسين سنة فتخرَّج تحت يدهِ عدَّة احداث اشتهروا بعد ذلك في انحاء الشام وفي مصر واميركا عرفوا لهُ فضلهُ في تهذيبهِ لعقولهم واثنوا على طيب عنصرهِ وخلالهِ الطيِّبة وكانت وفاتهُ وفاة الابرار بشفاعة سيِّدة النجاة التي كان رئيساً على اخويَّتها مدَّة سنين عديدة . وقد راسل جريدة البشير عشرات من السنين ولهُ فيها مقالات مفيدة

﴿ الشيخ حمزه فتح الله ﴾ توفي ضريرًا في السنة ١٩١٧ . وهو احد ادباء القطر المصريّ كانت الحكومة عيَّنتهُ مفتِّشاً على المدارس الوطنيَّة . قد خلَّف عدَّة تآليف نثرًا ونظماً فضلاً عمَّا نشرهُ من المقالات في جرائد الاسكندريَّة

﴿ علي ابو شوشة ﴾ من ادباء تونس انسس سنة ١٨٨٧ اوّل جريدة هناك بعد الجريدة الرسميّة المعروفة بالرائد التونسيّ فاقبل عليها الناس بعض الاقبال . توفي سنة ١٩١٧

﴿ فتح الله الجاويش ﴾ نُجبت به الآداب في ٦ تمّوز ١٩١٨ . فكان لنعاه رنّة أسف في طائفته وبين كلّ معارفه لما اشتهر به من حسن الاخلاق وسعة العلوم والاستمساك بحبل الدين . خدم وطنه في عدّة مهمّات باخلاص وعزم اقرّ لها كلّ رؤسائه . وكان كاتباً ضليعاً نشر عدّة مقالات في الجرائد الوطنيّة استحسنها القرّاء . وكان يجاهر بمبادئه الدينيّة لا تأخذه فيها لومة لائم . ولمّا تطاول على الدين المسيحيّ الشيخ يوسف النبهانيّ تصدّى له علانيةً وافحمه قدّام كلّ جماعته فالزموه السكوت . ولفتح الله مخطوطات مهمّة في التاريخ والآداب أظامنا عليها ونتمنّى ان لا تبقى محجوبة في زوايا النسيان . وله ايضاً قصائد وتواريخ شعريّة

﴿ بشير رمضان ﴾ كان من ادباء المسلمين في بيروت يحرّر في مطبعة الولاية . ولمّا أعلن الدستور سنة ١٩٠٩ انشأ مجلة الكوثر فأودعها عدّة فصول ومقالات حسنة . ومن آثاره منتخبات شعريّة وقصائد من نظمه . توفي سنة ١٩١٨

﴿ الشيخ اسكندر العازار ﴾ من ادباء الروم الاورثذكس واحرار الكتبة ولد في بيروت في ١٧ ك ١ سنة ١٨٥٥ وكان ابوه متولّياً ادارة مطبعة القديس جاورجوس فنشأ على حبّ الآداب ودرس في عدّة مدارس وانهى دروسه في مدرسة الاميركان في عبيه فتشرّب روح معلّميه ثم انحاز الى المارونيّة فكان احد اعضائها العاملين الى ان عرف دهاءها فانقلب عليها وصار يجاهر بسبّها وملامتها وعارض جرجي سرسق في تمثيل اليهودي التائه . واشتهر بالكتابة فحرّر المقالات المستملحة في عدّة جرائد وخصوصاً في جريدة التقدّم مع اديب اسحاق فدخل كلاهما في الجدال مع جريدتنا البشير دون الحياد عن آداب البحث لولا انبرا دافعا عن مبادئ مخالفة لروح الدين . وقد انتهت تلك المناقشات بتعطيل الحكومة لجريدة التقدّم ثمّ نبضت وكبت مرارًا حتّى توارت من عالم الصحافة . وبقي الشيخ اسكندر مواظباً على تعزيز آرائه السياسيّة والاجتماعيّة رغماً عن معاكسة الدولة العثمانيّة التي لم تكن تنظر بعين الرضى الى مبادئه الحرّة . وكان فكه الروح في كتاباته متفنناً في اساليبه يتقرّب

في البعض منها الى اللهجة العامّيـة كخواطره « ترلي ترلي » وفكاهاته المنونة « بخواضر البيت » . ولهُ نظم حسن يسمى بجمعهِ مع خطبهِ الاديب الهمام جرجي افندي نقولا باز . توفي الشيخ اسكندر في ١٤ ك ٢ ١٩١٩

﴿ نجيب البستاني ﴾ هو ابن بطرس الكاتب واللغوي الشهير . كانت وفاتهُ في مصر في ٣٠ نيسان من العام الماضي ١٩١١ وكان مولدهُ في ٧ ك ١ سنة ١٨٦٢ . درس الادب على ابيهِ وعلى اخيهِ سليم وحرّر عدّة مقالات في الجنّة والجنان حتّى صار اليهِ امتيازهما بعد وفاة اخيهِ سليم سنة ١٨٨٤ . وكان ساعد اباهُ في تأليف دائرة المعارف وخلفهُ في مواصلة نشرها . ثمّ عكف على القضاء وتولّى في لبنان رئاسة محكمة المتن في ايّام نعُوم باشا ثمّ منصب المدّعي العمومي الى ان قصد مصر واحترف فيها بزاولة فنّ المحاماة الى آخر حياتهِ . وقد حاز عدّة اوسمة من دول شتّى وخصوصاً وسام القديس غريغوريوس من لاون الثالث عشر بعد ارتداده عن مذهب ذويهِ البروتستاني

﴿ صموئيل يني ﴾ من ادباء الروم في طرابلس الشام جارى اخاهُ جرجي افندي وشاركهُ في انشاء مجلّتهِ المباحث . ولهُ ما عدا ذلك جملة آثار كتابيّة . توفّي في العام المنصرم في طرابلس . وفيها توفّي في ٢٥ ك ٢ من هذا العام صحافيّ آخر محمّد كامل البحري صاحب جريدة طرابلس . ومؤلف اخبار سياحة باشرها الى بعلبك وجهات الشام

﴿ يوسف خطّار غانم ﴾ كانت وفاتهُ في ٢٠ آب ١٩١٩ . كان من اسرة قديمة ورُلد هو في شيخوخة والديهِ سنة ١٨٥٧ ودرس في مدرسة الآباء اليسوعيين القديمة في بيروت ثمّ ثبت على ملازمة الدرس والقراءة حتّى اصبح كاتباً خليعاً وشاعراً مجيداً فحرّر عدّة فصول في كثير من صحف الشام ومصر ونظم قصائد عديدة كان يتفنّن في وضعها . وكلّ يعرف برنامجهُ باسم اخويّة القديس مارون طبع جزءاً منهُ في مطبعتنا الكاثوليكيّة اودعهُ شيئاً كثيراً من اخبار طائفتهِ الجليلة ورؤسائها ومشاهيرها . ثمّ توقّف عن نشره لضيق ذات يدهِ . وانّا نال من فضل الكرسي الرسولي عدّة اوسمة وامتيازات ورتبة كاقليرجزاء لخدماتهِ . ولولا بعض التطرّف في احكامهِ وبعض الهوَس في عقلهِ لَعُدّ من افاضل كتبة عصرنا

﴿ قيس لبكي ﴾ كان مهاجراً الى اميركا محرّراً في جرائد البرازيل في سان

باولو وغيرها . وقد عُرف هناك بتطرّفه وتحامله على الدين ففندنا في المشرق غير مرّة مزاعمهُ . وكذلك لصديقنا الاديب شكري الخوري منشئ ابي الهول ردود عليهِ في كتابهِ القنبلة الصغيرة . توفيّ بداء القلب في ٢٩ ت ٢ ١٩١٩

﴿ رشيد بك الرامي ﴾ توفيّ في ١٦ ك ٢ ١٩٢٠ عن ٤٨ سنة كان متضلّعاً من العلوم القانونيّة عُهدت اليهِ عدّة مراكز في سلك العدليّة في لبنان وفي الولايات . وبعد الحرب تعيّن كمبعوث لبنان . وكان رشيد بك متديّناً تقيًّا دمث الاخلاق

﴿ نعمان قساطلي ﴾ كانت وفاته في شباط الاخير ١٩٢٠ . وهو من أدباء الشام ألّف كتاب الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء .

ومات غير هؤلاء الادباء ممّن لم نقف لهم على تاريخ كتامر افندي ملّاط رئيس محكمة كسروان البدائيّة والشاعر المُجيد . وكريانا مرّاش في حلب . وعقل مشعلاني في مكسيكو

هذا وكم فُقد في اوربّا من العلماء في اوان هذه الحرب المشؤومة . نكتفي بان نورد هنا اسماء بعض المستشرقين الذين خدموا بلادنا بتآليفهم النفيسة . ففي السنة ١٩١٥ في ١٨ شباط مات في ساحة الشرف جان مسپرو الذي جرى على آثار أبيهِ في العلوم المصريّة القديمة والبوزنطيّة . وتوفيّ ابوهُ غستون بعدهُ في ٣٠ حزيران ١٩١٦ ولهُ من الشهرة في التآليف الهيروغليفيّة والاكتشافات الاثريّة ما لم يَنَلهُ غيرهُ — وفي ٢١ شباط ١٩١٥ خسرت الآداب الكتابيّة احد اساطينها الاب ڤيكورو صاحب معجم الكتاب المقدّس ومؤلف كتب عديدة في الاسفار المقدسة وكان عالماً باللغات الشرقيّة وتشرّفت بلادنا بزيارتهِ — وفي ٢ تمّوز من السنة مات في الحرب الكومندان كروس الذي تولّى حفريّات تلّو في العراق = وممن توفي في ١٩١٦ غدفريد كورث احد كبار المؤرخين البلجكيين والكاثوليكيين الصادقين مات في ٤ ك ٢ — وتوفي في ١٧ نيسان منها اوغست بَرث الشهير بالعلوم الهنديّة . ثم ايڤان تولستوي احد المستشرقين الروسيين (٤ حزيران) . ثمّ مادام جان ديولافوا السائحة الشهيرة الى انحاء الشرق والكاتبة الممتازة في آثار العجم وتواريخها والمرافقة لزوجها في كلّ اعمالهِ الادبيّة (ايلول) . ثمّ المستشرق الطائر الصيت ملكيور دي ڤوكويه ذو المآثر المتعدّدة (١٩ ت ٢) . ثمّ الكاتب البليغ پول آلار مؤلف تواريخ الاضطهادات النصرانيّة (ك ٢)

= وفي السنة ١٩١٧ رُزيت الاداب الشرقيّة بوفاة منشئ المجلّة السامية يوسف هالوي (٢١ ك ٢) . ووفاة المستشرق الطباع ارنست لاروو (Ern. Leroux) (٢٠ ايار) . ووفاة الاثريّ المصريّ جورج لوغرين (G. Legrain) (آب ١٩١٧) . ومات سنة ١٩١٨ في ١٤ منها الاثري لميل غيمه (Em. Guimet) . ومات في المانية المستشرقون مرتين هرتمان كنشلبار فنصليّة بيروت سابقاً وج . برث ناشر ديوان القطاميّ . وفلهوزن صاحب التآليف الشرقيّة المعتبرة وغيرهم ايضاً

٤ الاطباء والصيادلة

الدكتور جوزف سكي ✠ فقد الحلبيّون هذا الطبيب النطاسي في ٩ شباط سنة ١٩١٦ وكلهم يذكرونهُ بالخير . كان نمساويًا وتوطّن حلب زمناً طويلًا فربح شكر اهلها عموماً بخدمهِ الصادقة التي ادّاها الى الجميع على اختلاف مللهم واديانهم وبالخصوص الى الفقراء الذين كانوا يلتجئون اليهِ ويعرفون نزاهتهُ ورقّة قلبهِ يعالجهم مجّاناً ويصرف من مالهِ عليهم . وكان للمرحوم مركز ادبيّ ممتاز في الشهباء ومنزلة عليا بين الخاصّة والعامّة يتناصرون في اطراء مناقبهِ وحسن صفاتهِ . هذا فضلًا عن مجاهرتهِ بعبادتهِ الدينيّة وحفظهِ لوصايا الكنيسة الكاثوليكية بكل تدقيق

الدكتور يوسف بك الرامي ✠ ولد في قالوغا سنة ١٨٥٦ وتعلم في مدرستي غزير والتين وذهب الى الاستانة فدرس في المكتب الاعدادي استعداداً للطب ودخل المكتب الطبي العسكري وقبل نيله شهادتهُ تعيّن معاوناً لمعلّم التشريح وبعد الشهادة علّم ٣٤ سنة في مكاتب الطب العسكري والملكي والصنائع النفيسة . وجاء الى بيروت عشر مرات مع اللجن العثمانية لتفحص تلاميذ مدرستي الفرنسية والاميركية الطبيتين مرةً منها فقط غير رئيس . وكان عضواً في مجلسي الصحة العمومي والمعارف الطبية ومن اركان مؤلفي دائرة المعارف التركية . والف عدة كتب وطبع بعضها بلغة الترك ونال ستة اوسمة وثلثة انواط وبلغ رتبة امير الاي واحيل على التقاعد فاستمرّ في لبنان وتوفي في بيروت في ٢٦ ك ١ سنة ١٩١٦

الدكتور شبلي شميّل ✠ كان بودّنا ان لا نذكر هذا الرجل الّا بالخير وفيهِ ما فيهِ من الالمعيّة والذكاء والعلم باصول الطبّ والمعارف الاصليّة الّا انهُ شوّه ذكرهُ

بانحيازه الى المذهب الداروني والى اقوال الماديين والملحدين وكان يجاهر بذلك وكتب عدة تآليف لتأييد تلك المبادئ الوخيمة فجعلها عثرة في سبيل الشبيبة حتى ان اصحاب المقتطف مع جنوحهم الى آرائه ردّوا عليه في بعض اعداد مجلتهم كما اشرنا الى ذلك في المشرق سابقاً . وقد تعجّب صاحب المنار الاسلامي (١٩ : ٦٢٥) من سكوتنا عن الدكتور . لكنّ جريدتنا البشير كانت فنّدت آراءه . وكذلك ردّ حضرة الخوري جرجس فرج صفير في كتاب اصل الانسان والكائنات سنة ١٨٩٠ على ما نشره من تعاليم بخنر في مذهب التطوّر والتحوّل . ومثله فقيد الادب ابراهيم الحوراني . ويا ليت الدكتور شبلي سار على آثار اخيه المرحوم امين . كانت وفاته في غزّة السنة ١٩١٧

﴿ مراد بك البارودي ﴾ اختارته المنيّة في ١٥ شباط سنة ١٩١٨ . فعمّ الاسف جميع معارفه لما ازدان به شخصه من الخلال الطيّبة فكان رَيض الاخلاق رَحب الجنان متحنّناً على الفقراء كثير الادب ذا معرفة واسعة بامور الصيدلة وكان محبّاً للآثار القديمة يبذل في جمعها مالاً جزيلاً ومثلها المخطوطات الشرقيّة القديمة . كان الفقيد تخرّج في الكليّة الاميركانيّة فعدل عن طائفته الاورثدكسيّة ودان بالبروتستانيّة . ومات بعده باسبوع عديله المهام امين عبد النور افندي بسقوطه في بئر كانوا يخرجون منها الفحم رحمهما الله

﴿ الدكتور سليم جلخ ﴾ ولد في قصبة بعبدا في ١٠ ك ١ سنة ١٨٥١ ثمّ توطّن بيروت مع اهله سنة ١٨٦٠ ودرس في مدرسة عينطوره (١٨٦٤) ثمّ في المدرسة البطريركيّة (١٨٦٩) وبعد ان تعاطى مدّةً اشغال والده الدكتور يوسف بشاره الجلخ دخل الكليّة الاميركانيّة سنة ١٨٦٨ ونال شهادتها سنة ١٨٧٣ واضاف اليها في الاستانة اجازة المكتب الطبيّ السلطاني وكان تعيّن قبلها طبيباً لبلديّة صور وفي عجلتون ثمّ في بيروت . وقد خدم حيثما حلّ مواطنيه بنشاط ونزاهة وقد اشتهر بحنانه على مرضى الفقراء . وكان في اوّل امره يميل نوعاً الى افكار اساتذته الحرّة ثمّ لم يلبث أن تأصّل بدينه . ففي سنة ١٨٨٥ سعى مع بعض اصحابه بانشاء الخوريّة القديس مارون وترأسها مراراً وأسّس سنة ١٨٩٦ مع المرحوم نجيب حبيقة وجناب المحامي انطون بك شحير جمعيّة اخوة الفقراء المارونيّة . وكان عضواً من

اخوية الحبل بلا دنس ومشتركاً بجمعيّة مسار ماجور دي پول . ولهُ عدّة آثار ادبيّة وطبيّة منها كتابهُ صحّة الاطفال وخطب ومقالات مختلفة في المجلّات والجرائد توفي في ١٣ ايّار ١٩١٩

﴿ الدكتور رشيد شكر الله الحاو ﴾ هو ابن المرحوم الطبيب اسعد بطرس شكر الله الذي خدم ابناء وطنه بعبدا احسن خدمة وكان درس الطبّ على نفسه وحذقهُ بالعمل ومثلهُ اخوهُ المرحوم الصيدلي انطون الذي اسس سنة ١٨٥٩ الصيدليّة الشرقيّة في بيروت فخلفهُ في اشغالهِ انجالهُ الدكتوران الياس وجورج والصيدليّ بطرس الذين يعرف الجميع فضلهم . وقد امتاز المرحوم رشيد مثلهم بحذقهِ في مهنتهِ وبتديّنهِ . ومن آثاره اعتناؤهُ مع مواطنيهِ بترميم كنيسة بعبدا القديمة وتشييد كنيستها الجديدة سنة ١٩٠٩ . . وكان شديد التقى يحضر كلّ يوم الذبيحة الالهيّة . وقد ذكرنا في المشرق (١٠ [١٩٠٧] : ٥٢٦) تاريخهُ لعائلته . توفي في كانون الاول ١٩١٩ عن ٦٩ سنة بعد صبرهِ عدّة سنين على مرض مزمن

﴿ الدكتور حسين بك حيدر ﴾ من اسرة آل حيدر الشريفة في بعلبك المعروفة بمروّتها وكرمها . درس في مكتبنا الطبيّ الفرنسويّ ونال شهادتهُ . ولمّا اعلنت الدولة العثمانيّة بالحرب وجّهت نيّتها الى التنكيل بآل حيدر لميلهم الى الدولة العربيّة وفتكت بالبعض منهم ونفت البعض لكن القسم الكبير منهم تصدّوا للظالمين واذاقوهم وجنودهم الامرّين فخرجوا من قتالهم فائزين بعد ان وقع بعض ابطالهم في ساحة الوغى ومن جملتهم الدكتور حسين بك حيدر وذلك في اواخر الحرب العموميّة (راجع تاريخ العصر الدموي لناصيف بك ابي زيد ص ٢٠٢)

وقد ذهب في هذه الحرب الاخيرة عدد وافر من الدكاترة المتخرجين في مكتبنا الطبيّ شهود محبّتهم لوطنهم في خدمة العسكر العثماني في ساحة الحرب او في المستشفيات نخصّ منهم بالذكر ابرهيم معربس في حملة السويس (١٩١٥) والياس عرمان في فلسطين (١٩١٦) وناوفيل ذبّانة في الشام (١٩١٦) ومنصور الخازن في بعلبك (١٩١٦) ومسعد كرم في برابك (١٩١٦) وفريد حرفوش في الحجاز (١٩١٧) واسكندر مرقّده في عقفوله (١٩١٧) وعبد المجيد حماده في بيروت (١٩١٧) والامير شامل شهاب وجورج سمعان وانطون ذبّانه ولا نعلم في اي تاريخ

اما تلامذة المكتب الطبي الارمن فآثر الاتراك التنكيل بهم ظلماً بدلاً من الانتفاع من خدمتهم فقتلوا الدكاترة ثاهان برونفرتيان في ديار بكر (١٩١٥) واخاه الياس في قراسند (١٩١٥) وسورين نشانيان في قيصرية (١٩١٥) ومهران كتشيان واخاه جورج في آطنة (١٩١٦) وطوروس بابيان في طرابزون (١٩١٧) وميناك بانوسيان في طوقات (١٩١٧) ودغران بوتوكيان في سيواس (١٩١٧) وثاهان قرتنيان في سيواس ايضاً (١٩١٨) ودغران سرايدريان (١٩١٨) ونشان دير ڤهران ناهضيان في خربوط وبلتزار قرتنيان في سيواس وكتشادور بسطرجيان في ملاطية. فدماء هؤلاء الابرار قد جرت هدراً ويا ليتها سُفكت في خدمة الوطن. ولعلها سُفكت بغضاً بالدين فكانوا شهداء ايمانهم

ونضيف الى هؤلاء المذكورين الدكاترة المرحومين رشيد بريدي (١٩١٥) وحبشي (آذار ١٩١٧) ومنصور سوداء (١٩١٨) وصعب ملّاط (١٩١٨) ونخله مدوَّر (١٩١٨) واسعد شيبان (١٩١٨) وعبد الرحمان الاني (١٩١٩) والياس الحاج (١١ آذار ١٩٢٠). والصيدلي اسكندر الحلو (٢٧ ك٢ ١٩١٩). رحمهم الله جميعاً

٥ الاتقياء وارباب البر

هذا الباب واسع فان كثيرين من ذوي البرّ والتقى انتقلوا الى جوار ربّهم في هذه السنين الاخيرة لا يسعنا ذكرهم بل احصاؤهم فنكتفي بالنزر القليل

ڤ ناصيف عكيرة ڤ توفي يوم سبت الآلام سنة ١٩١٥ ودُفن مساء عيد الفصح كأن الربّ اراد ان يشركه بموته وقيامته بعد عيشته الصالحة التي قضاها في كلّ اعمال البرّ حتى انّ مرشد ضميره اكّد انه لم يفقد طول حياته براءة معموديته. ولد ناصيف في اواخر سنة ١٨٥٨ ورضع التقوى مع حليب والدته القديسة ثم دخل اخويّة الامّ الحزينة في زمن المرحوم الاب حنّا فيوروڤيش فصار عميدها الاشدّ وسندها الاكبر مدّة نحو اربعين سنة مضحّياً نفسهُ في خدمة ابنائها الروحيّة والماديّة. وهو في الوقت عينه مثال حيّ في ممارسة كلّ الفضائل المسيحيّة عائشاً في العالم عيشة اتقى الرهبان في اديرتهم لا يفوتهُ شيء من كلّ الاعمال المبرورة النافلة من صوم

وصلاة واعمال تقوية فضلاً عن الواجبات الدينية اللازبة . ولعلنا نعود الى ذكره ونفرد له ترجمة خاصة ان شاء الله

﴿ جرجي يوسف اجيا ﴾ كان في حلب عمدة كل الاعمال الخيرية والتقوية كناصيف عكرة في بيروت . ولد في ٦ ك ٢ سنة ١٨٤٩ وتوفي في ٧ آذار ١٩١٩ . سبعون سنة لم يخلُ فيها يوماً عن بعض المبرات . تعشق الشغل منذ حداثة سنه لكنهُ مارسهُ بروح التقوى والاستقامة التامة . ولم يجترئ بترتيب امور بيته وتربيته بنيه الصالحة بل قدَّم نفسهُ طوعاً لمؤازرة اكليروس طائفته السريانية وخدمة الآباء الرسلين في كل مشروعاتهم الدينية كالاخويات والجمعيات الخيرية والسجود الليلي للقربان الاقدس وتلقين الاحداث مبادئ الدين واجتذاب العلة الى العيشة الفضلى التي كان هو مثالها الحي الى آخر نسمة من حياته

﴿ نخله شكري ﴾ هو نخله بن بطرس شكري كان رئيساً لاخوية القديس يوسف واخوية الجبل بلا دنس المارونيتين وقد وضع لذلك كتاباً دعاهُ الايضاحات الوفية في واجبات الاخوية . وكان عريقاً في الدين كثير التقوى والصلاح ذا غيرة مشكورة في خدمة الجمعيات الخيرية . وقد احسن ادارة الاوقاف في كنيسة مار مارون . توفي في ايار ١٩١٩

وكان بودنا ان نذكر كثيرين ممن عرفناهم وكانوا بصلاحهم وتقاهم ومبدآتهم قدوة لمواطنيهم لولا صعوبة الحصول على آثارهم كبشاره جاهل وابرهيم عورا ونقولا نحاس من الروم الكاثوليك وعبدالله غانم وطنوس الحلو (٢٠ ت١ ١٩١٥) والياس برتي من جزين (٢ شباط ١٩١٨) . وجان ابيلا (ت ١ ١٩١٦) وجرجي شيحا (٢٥ ك ١ ١٩١٧) واسكندر شيحا (١٩١٩) من اللاتين . وابرهيم حداد الارمني (١٢ آذار ١٩١٨) وانطون سابكي (٢٣ آذار ١٩٢٠) ومثلهم بعض عملة مطبعتنا كنعوم عقل (١٩١٨) وجبران دكاش (٣ ك ٢ ١٩٢٠) . رحمهم الرب واثابهم ثواباً جزيلاً

* اصلاح غلط * وقع في هذه المقالة بعض اغلاط نورد إصلاحها هنا :
ص ٨٤ س ١٩ مولد المطران بولس مسعد في ٦ ك ١ لا ك ٣ — ص ٢١ سامتهُ في ١٨٨٩ لا ١٨٧٩ — ص ٣٥ كتاب التحفة الغراء ليس لهُ بل للبطريرك بولس مسعد = ص ٨٧ س ١٥

المسيو يوسف العلم تلميذ مار عبدا ليس عين ورقة = ص ٣٨٦ س ٢٠ كانت وفاة الشيخ عبد الرحمان الحوت في ٨ آذار ١٩١٨ ليس ١٩١٧ = ص ٣٨٧ س ٩ اصل جرجس مسؤول من بيروت لا من حاصبيا ولم يدخل في خدمة الامير بشير وانما كان من افاضل الوطن = ص ٣٨٨ س ١٢ وفاة جبران فرح في ٣٣ ايار لا نيسان = ص ٣٨٩ س ١٧ وفاة اسكندر مسك سنة ١٩١٩ لا ١٩١٨ = ص ٣٩٠ س ٥ قتل المرحوم يوسف الحاني في ١٩١٦ لا ١٩١٥ — س ٢٢ كان مؤتمر باريس العربي سنة ١٩١٣ لا ١٩١١ = ص ٣٩١ س ٢ الامير عمر هو ابن الامير عبد القادر لا حفيده — س ١١ قتل محمد المحمصاني سنة ١٩١٥ = ص ٣٩٢ س ٢٢ حبيب دوناتو كان ماروناً وتوفي في قلعة حلب . والمقتول في نفق الكنيسة الحديدية هو توفيق عبدالله بدوي

العقوبة عند البدو في سوريا

بقلم الاديب ميشال شبلي احد طلبة الحقوق

ما من شيء ينمُّ عن عوائد الاقوام ويدلّ على اخلاقهم وطباعهم ونوع معيشتهم وبالجملة على حياتهم الاجتماعية مثل الحقوق المتبعة والقوانين المرعيّة عندهم . ولذا كان من اهمّ ما يعتمد عليه المؤرخون ويدرسهُ علماء الاخلاق والاجتماعيات في كتاباتهم عن احوال شعبٍ ما الحقوق التي يستنير بها ذلك الشعب والقوانين التي أجمع افرادهُ على الخضوع لها

ذلك لأنَّ القانون هو ثمرة التقاليد التي كوّنتها الاجيال في العقول وهو زبدة الاعتقادات التي انتمَّ بها الشعب في اثناء اجتيازه القرون . فاذا رأينا بين رجال التاريخ مَن أطلق عليهم لقب المُشترِع فلا يجب ان نفهم بذلك انهم هم الذين وضعوا الشريعة بل ان ما عمله ليس هو الّا جمع العادات وضبطها لان القوانين والشرائع كانت منذ كان الانسان ألوفاً يعيش العيش الاجتماعي مع بني جنسه

وقد بلغ اليوم الانسان في الامم الحديثة مبلغاً من الرقي وما جمعه القوانين وتسطيرُها وتحويرها الدائم بنوع يلائم الحالة الاجتماعية التي بلغ اليها الّا شاهدٌ من الشواهد على فطرته الاجتماعية

فلا عجب اذا اذا رأينا كلَّ شعب خطا في سبيل حياته الى الأمام حريصاً على ضبط نظاماته حسب روح التمدُّن الاجتماعي الحديث . وبما ان الانسان اين كان على سطح الغبراء هو أهلٌ إن قُيِّضت له سلطةٌ شرعية منظمة وقُدّر له حال الأمن

والرغد أن يسير في طريق الرقي الى آخر أشواطه وجب علينا ان نقول اذاً ان الشعوب والاقوام التي لم تزل نراها في عصرنا هذا في طور الحداثة نظراً لقوانينها واعتقاداتها وعاداتها بالنسبة الى الامم الحديثة الراقية ان ليس هناك عجزٌ وخمولُ طبيعة بل ان هناك اسباباً أثرت على العقول فأوقفت تلك الاقوام عن السير الى الامام خلال الاجيال

اجل اننا لا نتمالك نحن ابناء هذه البلاد السورية من النظر بمرارة وأسف الى اطراف البلاد فنرى فيها اقواماً من البدو بل ومن الحضر ايضاً لم يزالوا في حالة الانسان الفطرية وفي الحالة التي كان عليها اجداد الامم الحديثة منذ عشرات الاجيال . وقد كان الأولى بنا نحن في هذه البلاد ان يكون لنا ما نُباهي به ونُفاخر من قوانين تكون مثالاً للأمم وبلادنا كانت مهبط الشرائع والقوانين الالهية ومَنبت اعظم علماء الشريعة في التاريخ وحسبي ان اذكر پاپينيانوس وقد قالوا عنه انه اعظم علماء الرومان في الشريعة على الاطلاق . وهو سوريّ الاصل ومثلهُ مُواطنهُ اولپيانوس وهو يضارعه علماً وشهرةً تاريخية

وبعد وقوع الفتح الاسلامي لم تكن سورياً عقيمة في انتاج العقول الكبيرة لدرس الشريعة والفقه كفى دليلاً عليه الإمام الشافعي احد ائمة الاسلام الاربعة الكبار هو سوريّ والامام محمد الشيباني من اعظم اصحاب ابي حنيفة هو سوريّ وأجتزئ بهذا كيلا يطول بي المجال

ولكن ان توقفت سوريا عن الرقي ويشهد بتوقفها ما بقي بين سكان اطرافها من الفرق والعادات التي تشين الحقوق الحديثة فما كان ذلك الّا لأسباب اراني في غنى عن ايرادها . وقد نسي الماضي بما لنا من الأمل في المستقبل

اما الآن فما كنت لأتعمد سوى لمحة مجملة عمّا عند اولئك الاقوام من بدو وحضر في اطراف سوريا من عوائد لم تزل منذ اجيال الانسان الأولى وخصوصاً عمّا يتعلّق منها بالعقوبة محاولاً على قدر استطاعتي بعض المقابلة مع ما كانت عليه تلك العوائد ذاتها عند الشعوب القديمة . ولست اتطرّق الى ما عندهم من عوائد اجتماعية وشرائع مدنية قد يكونون متبعين فيها شريعةً مسطورة أخذ معظمها ولا ريب عن الشرائع القديمة واخصّها الرومانية

ناهيك مثلاً عما عند اهل البادية بشأن الزواج وهو عقد مدني : فليس عندهم شيء معيّن يؤهل لعقد الزواج (١

وقد كانت هذه حالة الشريعة الرومانية في طورها الاول حيث كان رئيس العشيرة هو الذي يتحقق فعلاً بلوغ طالب الزواج

(قطعة مشطوبة في المراقبة عن الطلاق في البادية ومعارضتها على الشريعة الرومانيّة)

***

اما العقوبة وهي الهدف الذي توخيته في كلامي فقد كان للاب الفاضل الخوري بولس سلمان فضل كبير بوضعه مسهباً في اعداد المشرق الاخيرة عوائد البدو في تلك الاطراف . فانه يسد فراغاً كبيراً في دروسه احوال سكان تلك البلاد . لانه قبل ذلك كان على السوري مثلاً ان يعتمد في درس اخلاق وعادات اهل بلاده الى ما كتبه ويكتبه الرحّالة والجوّابون من الاجانب

وجلُّ ما تعمدته الآن ان اذكر ان كل ما هنالك من عوائد وشرائع منقولة

(١) ذكر ذلك الاب حوسين في مجلة الشرق المسيحي L'Orient Chrétien, 1910, P. 593)

انما هي في الحالة الفطرية لم تزل في عصرنا هذا عند الاقوام التي لم تشعر بتيار التمدن الحديث بل ضربت الاجيال حولها سوراً لا يزول الا مع الاجيال

ان بعض العادات مثلاً ان هناك اصطلاحات حسنة فما هي كذلك بالنسبة لغيرها بل بالنسبة لما هو عليه مجموع تلك العوائد . فان قلنا مثلاً ان القاضي لا يسوّف ولا يماطل في اصدار احكامه فذلك حسن بل واجب في مجتمع كذلك المجتمع اذ ليس عنده من يزوّر البيّنات والوقائع والمحاكمات فيُخشى اذ ذاك من نسيان القضية او ضياع الشهادات ولكن ذلك ليس بأفضل من التأني قبل اصدار الاحكام لتتضح الحقيقة بأبهى جمالها سيما اذ لا يُخشى من نسيان القضية وموت الشهود وقد أودعت شهاداتهم السجلات

ومثل ذلك قولنا ان الرواة لهم فضل في حفظ تاريخ شعب ما . ولكن لو كان ثمّت تاريخ مسطور لكان افضل واثبت . فبعدم كتابة التاريخ صار للرواة فضل

ولا يخفى ان الشريعة عند الاقوام المتأخرة انما تكون مقتضبة مختزنة بمبادئ اوّلية . ذلك لانه لا حاجة ماسّة فيها التوسع لضيق معارف تلك الاقوام ولعدم حاجتهم لشريعة ضافية البنود والموادّ اذ قد يكون عادة بين الافراد عندهم عقود والتزامات وأخذ وعطاء كما في المدنيات الحديثة

ولهذا فاننا نرى ان ما يحتاج اليه الانسان في الحالة الفطرية يكون : اولاً الانتقام الشخصي . وثانياً الدفاع عن مقتناه ضد السارق . وفي خلال كلامنا عن ذلك سنقول كلمة عن القاضي والشهود عند البدو وكل ذلك بالايجاز حسب الامكان ومقتضى الحال

اولاً : (الانتقام الشخصي) ان سنة القوة هي اول ما بدت في المجتمع الانساني حتى خالها البعض من النواميس الطبيعية فقالوا لا بدّ من سيادة القوي على الضعيف . ولكن اذا قبلنا بهذا فمن يكفل للضعيف كيانه ؟ ومن يضع الحد لتغطرُس القوي الّا تلك السلطة العمومية وهي شرعية كانت منذ كان الانسان عائشاً بين امثاله

فمن المحال اذاً ان تسود سلطة القوي وهي تبدو خلال الانتقام الشخصي مع وحدة السلطة العمومية التي لا بدّ لها من ان تكون قوية معزّزة . فاذا تطاول القوي

وتمادى في غيه على سيادة السلطة العمومية افضى الامر الى الفوضى والفوضى من امراض الاقوام القتالة

ان البلاد المتمدنة في عصرنا هذا تأبى سوى سيادة السلطة العمومية مع تساوي الافراد امام قوانينها . ولكن الامم الحديثة لم تتوصل الى هذا الا بعد ان اجتازت الاطوار المختلفة . وفي درسها يمكننا ان نرى في اي طور فطري لم يزل الاقوام في اطراف سوريا عائشين

ان الانسان كان هدفاً دائما لمطامع غيره من بني جنسه فان لم يكن ذا قوة تؤتي ذوي الحقوق حقوقهم استسلم المرء للانتقام لذاته حسب ما تمكنه قوته وحالته

ففي الطور الاول من تاريخ الانتقام كان لمن أصيب بالضرر الحق بان يفوق سهام انتقامه على من اصابه بذلك الضرر او على ذوي رحمه وقرباه ان اراد . وكان يوسع كل فريق ان يستعين بذويه فتنشب الحروب وتسيل الدماء الى ان يكون صلح بين الفريقين يُعقد بالمال والعدية . وهل اصل الحروب غير ذلك ؟ ولا يخفى ما في هذا الانتقام الشخصي من الاضرار وقد لا تحصى :

(فاولاً) قد يكون الانتقام هائلاً لا يقف عند حدّ . وقد يكون احياناً اخرى اخفّ من الجريمة لعجز المنتقم

(وثانياً) عدم تمكن كل انسان من الاثئار لذاته فيضيع حقهُ احياناً اذ لا سلطة تذود عنه

(ثالثاً) قد يصيب الانتقام شخصاً بريئاً من ذوي قربى المجرم وهذا يأباه العدل والضمير

وفي الطور الثاني لمّا رأى المتحاربون ان الامر ينتهي بهم الى دفع الغرامة اتفقوا على ادائها دون خوض الحرب . فكانت الجريمة يعادلها مبلغ من المال

وفي الطور الثالث ظهرت السلطة ببعض القوة فعيّنت مقدار الغرامة تعويضاً لكل جريمة وجناية واوجبت على المجرم دفعها وظلّت تكتسب توسيعاً في صلاحيتها حتى كان لها في الطور الرابع الحق العمومي في كل حادث يخل براحة الهيئة الاجتماعية

اما عند سكان اطراف سوريا من بدو ورحل فقد شاع الانتقام الشخصي

ويخال انه لم يزل في اطواره الاولى بل اشدّ ضررًا فقد جاء (١ ان اهل المقتول لهم الحق بقتل القاتل او احد اقاربه وإلحاق الضرر به بذبح مواشيه واتلاف حاصلاته . ولكن دون الحق باستحلالها . فيبدو لنا ان هذا التحفظ الاخير هو اشدّ ضررًا بالمجتمع من اباحة سلبها واستحلالها . لان باتلاف مال المجرم ضررًا لاحقًا به وخسارة على المجتمع لم تسلّم بها شريعة

نعم انه يجوز لا بل يجب طلب الدية وثمن الدم وهذا بالحقيقة تعويض عادل عن الخسارة التي تنجم عن الجرم . ولكن ما يعمله اولئك الاقوام من اتلاف مال المجرم هو مناف للمنفعة العمومية وللصواب وللعدل وللضمير

والعرب يعدّون الانتقام ليس فقط جائزًا تدفع اليه الحاجة بل يحسبونه " من النواميس الشريفة ويقرّبونه من الفرائض الضرورية المقدسة " (٢ فهم لم يزالوا اذًا في حالة العشائر القديمة قبل ان بلغت في الغرب بفضل الكنيسة والتعاليم الدينية . الى حالة تطمئن لها القلوب والعواطف الانسانية من تخصيص العقاب مثلًا بالمجرم وتهذيبه في زمن انزال العقاب به . وعدم الحكم عليه الا بما ينصّ عليه القانون استدراكًا الخ . الخ .

وعند قبائل البدو رُبَّما هُدر دم الاجنبي . ولا عجب فذلك طبيعي في مجتمع لا سلطة عمومية فيه بل يسود فيه الانتقام الشخصي . والغريب الاجنبي ليس لهُ من احد يطالب بدمه

(ثانياً القاضي) ان القاضي عندهم يتوصل الى منصّة الحكم والقضاء بذات الطريقة التي كان يتوصّل بها القضاة عند القبائل القديمة . فالحقوق عندهم محتكرة في قوم يتوارثونها . وقد جاء في المشرق في تعريف قاضي العرب" انهُ امير من امرائهم يُعرف بتوقد ذهنه وسرعة خاطره والقاضي يرث الحكم بعد ابيه"

وهذه كانت الحال عند الاقوام الاقدمين فقد كان القاضي عند الرومان كبير عشيرته وقائدها يوم الوغى ورئيسها الديني . ومثلهم قضاة بني اسرائيل . وانهُ لكذلك عند العرب فهو الامير السائر في طليعة الخيل يوم تدقّ طبول النزو . وهو الرئيس

١) الشرق المسيحي سنة ١٩٠١ ص ٥٨٧

٢) راجع المشرق ج ٢ ص ١٠٠

الديني ولا غرو فان الاعراب يعدُّونه كذلك وهم « يعتبرون بيته مقدساً ». (المشرق ١٧ : ٥٨٤)

ولربما انهم يعتقدون ان علمه بالغ الكمال لكونه الرئيس الديني ولانه حسب اعتقادهم متَّصف بقدرة عجيبة يستدلّ على ذلك من قولهم عند طلب الحكم : « ما قول القاضي في شيء مبين عليه وعلي غبي » ولهذا فانهم لا يرافعون في المحاكمة بل هي طريقة التحكيم بنوع ما . تلك الطريقة التي كانت شائعة عند الاقدمين وخصوصاً الرومان وانما يجب عليهم ان يخضعوا لها لانهم كما اشرنا قد يعتبرون قول القاضي كفصل الخطاب

ويسود في طلب الحكم عندهم التقيُّد بعبارات مخصوصة والسير في طرق كرَّستها الايام وهذا ما يدعونه : le formalisme . وذلك شأن كل الاقوام الذين لم يدركوا من الحقوق معناها الواسع

وللقاضي كما جاء في المشرق راتب محدود لكل دعوى يحكم بها . وهذا الراتب هو ما يتقاضاه ظاهراً على ما اظنّ . وهذه العادة بتقاضي مبلغ عن كل دعوى قد كانت عند القبائل القديمة واستمرَّت حتى الاجيال الوسطى فكان الملك يتقاضى بصفته القاضي الاكبر مبلغاً عن كل دعوى هو ما يدعونه : le fredum

(ثالثاً الشهود) . اما الشهود فجدير بنا ان نقول دون ادنى تردّد ان الشهادة وتأديتها هي عند تلك الاقوام في الحالة الفطرية حقّ . والشهادة عندهم ولا ريب هي لإثبات كل دعوى مدنية او جزائية مهما بلغت . ولا عجب فلا يمكن في مثل مجتمعهم الّا الاعتماد عليها

ولكن لمّا كانت تلك الطريقة في الاثبات مفعمة بالخلل من ايجاد شهود كذبة عمدوا الى تحليف الشهود . ولكن قد يكون في الحلف ايضاً اخفاء للحقيقة فلم يروا افضل من استعمال الامتحانات (١ كبلع الحديد المحمي وغيرها وهي ما يقال له : ordalies

فلا اخال اذاً كما جاء في المشرق ان شهادة الزور داخلة على العرب من عهد قريب اذ لو كان ذلك حقّاً لمّا عمدوا الى استعمال الامتحانات . ولا اخال كذلك ان

١) المشرق ١٧ : ٥٨٧

القسم والحلف هو عندهم « من ارهب الامور واقدسها » بل اني لأحسب الواحد من اولئك البدو يحلف بالله مرارًا كل يوم ولأسباب قد لا تكون داعية . وعليه قد اضحت الامتحانات كبلع النار وشرب السم « في نظر البدوي اكبر شهادة حتى المتبعة بالقسم »

فنرى اذًا ان استعمال الشهود وما ينجم عنه من شهادة الزور افضى الى استعمال بلع النار وامتحانات أخرى . فعلّق عليه البدو الاهمية وخالوه اكبر مظهر للحقيقة

اما استعمال هذه الامتحانات فقد شاع عند الشعوب البربرية خصوصاً عند قبائل الجرمان وظلّوا بعد اكتساحهم الامبراطورية الرومانية يعمدون اليها غالباً وقد تسرّب بعضها الى الاجيال الوسطى فقامت الكنيسة الكاثوليكية بتعاليمها المهذّبة الآئلة للتمدن تعمل لاستئصالها والتاريخ شاهد على انها تمكنت من ذلك . والنور لا غرو يبدّد الظلام

١ رابعاً السرقة) ان اول ما يستلفت النظر في امر السرقة عند البدو هو الايجاب على السارق بدفع المسروق مربعاً (١ . ومن الغريب ان نرى هذه القاعدة بدفع المسروق مربعاً لم تزل سائدة في اطراف الشرق ولعلّها من بقايا الشريعة الرومانية التي جُمعت في بيزنطية على عهد يوستينيانوس وعُمل بها دهرًا في مملكة الشرق الرومية ذلك لان الشرع الروماني في آخر اطوار تكوُّنه (٢ اوجب دفع المسروق مربعاً (٣

واني لاجتزئ بما ذكرت من امر العقوبة عندهم واراني بعد هذا في غنى عن ان اردّد ايضاً ان الحقوق عندهم والعقوبة على الاخص لم تزل في الحالة الفطرية لا شبه ولا قياس بينها وبين ما توصّل الى وضعه الانسان المتمدّن . وما عوائدهم في حياتهم الاجتماعية والدينية الّا من بقايا الاعصار القديمة ايضاً . فعندهم تكاتُف افراد العشيرة على الغزو بينما قد توصل الانسان المتمدن في عصرنا الى معنى التكاتف على الخير ليس

---

١) Rev. Orient Chrét, 1901, p. 529

٢) Dans l'Edit du Préteur

٣) وفي السرقة عندهم قاعدة تشذ عما اجمعت عليه قوانين الجزاء الحديثة فانه عند البدو اذا قتل صاحب الخيمة السارق الذي دخل خيمته ليلًا يلتزم صاحب الخيمة بدفع الدية . مع ان قانون الجزاء العثماني مادة ١٨٧ والقانون الافرنسي مادة ٣٢٩ تحتم دم السارق ليلًا

في الامة والشعب فقط بل يبغي نطاقاً اوسع . وما تمسكهم بمذهب على ما يخال عن حب التعبد بقدر ما هو من قبيل العادة فقد جاء عن احد مشايخ بني صخر (١ انه كان صائماً رمضان فاصابه حادث كسرت به يده . فقدم على صيامه ولم يعد منذ ذلك الحين يقوم بواجب الصيام

وما اشبه هذا بما كان من اعتقادات الاقدمين الدينية فقد اخبر الشاعر اوريبيد اليوناني وهو من اهل القرن الخامس قبل المسيح ان اليونان الاقدمين عندما كان يصيبهم فشل في حرب كانوا يعودون على آلهتهم باللوم والتعنيف على سوء قيامهم بما يتوجب عليهم من الذود عن الحمى . وقد كان يبلغ بهم ذلك احياناً الى نقض الهياكل او رميها بالحجارة حنقاً

اذا قلنا بعد هذا ان الاجيال العديدة تفصل بين التمدن الحديث وبين ما هي عليه حالة بعض الاقوام في اطراف سوريا فلا ينتج من قولنا انه علينا ان ننتظر عمل الاجيال فيهم وفينا لنبلغ الى حيث ما نصبو من الرقي . بل بوسعنا ان نغتنم التمدن بوقت اقصر وذلك مع مساعدة حكومة راقية قديرة لان من اسباب تأخرنا في العهد المنصرم ما كان من تأخر وانحطاط الحكومة الماضية . ولن تلبث تلك الاقوام ولا ريب بعد ان يستتب الامر للحكومة الراقية فيستتب بذلك الأمن والراحة . لن تلبث ان تسير في سبيل التقدم وبذات الفعل تتحول وتتحور عوائدها وشرائعها وتتنظم وتتكمل مع تقادم الزمن ولا غرو

اجل لا يمكن ان يكون لشعب نظام الا حسب اخلاقه وطباعه وقد سأل احدهم سولون المشترع اليوناني عما اذا كان يحسب انه سنّ لاثينا اصلح الشرائع وأعدلها . فاجابه سولون لا بل اني اخال ان الشرائع التي وضعتها هي الاكثر موافقة ومناسبة الان . وقد قال هيرودوت المؤرخ ان سولون كان يتمنى ان تثبت شرائعه عشر سنوات على الاقل بدون تغيير . ذلك لانه كان يرى ان التقلب والتطور مما من طبيعة المجتمع البشري واول ما يبدو تأثير ذلك التطور يكون في النظامات والقوانين

(١ Orient Chrét 1901, p. 602

فاذا كانت الحقوق عند قبائل سوريا الداخلية لم تزل في طور نشوئها فلا بد من ان تسير الى البلوغ بعد ان ذرّ قرن هذا العصر الجديد . واذا قيل ان ما عندهم من الشرائع المنقولة هو طبقاً لاحتياجاتهم فيجب ان نعلم ان الشريعة البشرية ليست فقط لراحة واسعاد المجتمع الحاضر بل هي الطرائق المؤدية والمؤهلة للبلوغ الى كمال الاعمال البشريّة . وانما قد يُعاب على تلك الاقوام ليس اتّباعها الآن تلك الشرائع والعوائد الفطرية . بل وقوفها جامدة في اثناء الاجيال . بل وقوفنا نحن ايضاً ونحن في بلاد هي مهد المدنيّة الشرقيّة القديمة ومنبت علماء الحقوق وصلة التعارف بين الشرق والغرب

فالأمل كبير في المستقبل . كبير بمساعدة الدولة الكريمة التي اخذت على عهدتها تمدين هذا القطر . فيكون يوم يعمّ به التقدّم سوريا كأمّها فلا يعود فيها قبائل تمثل حياة الانسان في اجياله الاولى . وعلينا نحن من جهة ثانية ان ننهض بذواتنا فنختبر كل شيء قبل او نندفع في اتباعه فلا يكون في حياتنا وعوائدنا ومجتمعنا كلّه الّا كلّ ما هو صالح وبذلك تقتنى لنا الشرائع الصالحة . ولا يكون ذلك الّا اذا كنا نريد

اعظم طامّة في الحرب العامّة

نظر اجمالي في الحرب الاوربية للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الثاني : الدول الاتفاقية (تابع)

٤ سربية

معلوم انّ سربية احدى الدول البلقانيّة تجاور النمسة شمالاً وغرباً وتركيّة جنوباً وشرقاً . فكان موقفها بين دولتين معاديتين يعرّضها لأعظم الاخطار وهي دولة صغيرة لا يكاد عدد اهلها يتجاوز مليونين ونصف مليون من النفوس . منهم نحو ٦٠٠،٠٠٠ في عاصمتها بلغراد ومساحتها اقلّ من ٥٠٠،٠٠٠ كيلومتر

منذ نالت سربية الاستقلال سنة ١٨٢٩ اصبحت مرسحاً للمنازعات الاهليّة بين الاسرتين الملكيّتين ايرانوفتش وقره جيورجيفتش . وملكها الحالي بطرس الاوّل من هذه الاسرة الاخيرة تولّى الملك في السنة ١٩٠٣ . ثم انّ اهل سربية من العنصر الصقلبيّ فكان ذلك مدعاةً لاغراض الدول فيها فانّ روسيّة من جهة تعتبر نفسها كوصيّتها الطبيعية لوحدة الجنس فتقوم في وجه كلّ من يعاديها . ومن جانب آخر تنظر اليها النمسة شزرا لخوفها من تقرّب رعاياها الصقالبة اليها وعددهم يفوق على ضعفَي العنصر الجرماني فيها . فوقعها هذا الحرج كان كالبركان المنتظر انفجاره آجلاً او عاجلاً

جاء الارشيدوق فرنسوا فرديناند مع قرينته في اواخر حزيران ١٩١٤ الى سراياڤو عاصمة البشناق النمسويّة ليخمد ما ظهر بين اهلها من الشغب رغماً عمّا انذروهُ من الخطر على حياته فلم يكترث لهذا التنبيه . فذهب ضحيّة تهوّره فقُتل مع الملكة بيد احد الطلبة المدعوّ غراڤلو برنشيپ في ٢٨ حزيران . فرأت النمسة في هذا الفعل الاثيم مؤامرة عقدتها سربية لتحريك الفتن في مملكتها . وفي ٢٦ تمّوز ارسلت الى السرب بلاغا نهائيا تعرض عليها عدّة شروط قاسية منذرةً بالحرب ان لم ترضَ بها قبل ٤٨ ساعة . رضيت سربية بها اجابةً لمشورة روسيّة وفرنسة وانكلترّة الّا شرطين يمسّان شرفها طلبت عرضهما على مجلس تحكيميّ فكادت ترضى بذلك النمسة لولا المانية التي وجدت في هذا الحادث فرصة مناسبة لحرب كانت تضمرهُ منذ عدّة سنين فدفعت النمسة على ردّ طلب سربية واعلان الحرب عليها في ٢٨ من الشهر فكان ما سبق لنا وصفهُ من نشوب الحرب بين الدول كسلسلة متواصلة تجرّ كلّ حلقةٍ اختها

ظنّ النمسويون انّهم سيذردون سربية بوقعةٍ واحدة فزحفوا اليها بعسكر جرّار لا يقلّ عن ٢٠٠،٠٠٠ مسرعين الى عاصمتها بلغراد لا يشكّون بظفر قريب . لكنّ الامر لم يوافق حسبانهم فانّ السرب حشدوا جنودهم وانضمّت اليهم قوى الجبل الاسود فقدّموا قسماً من عسكرهم ليوقف الزاحفين في طريقهم وحصّنوا بلغراد واستعدّوا للقتال . وقد تمكّنت مقدّمتهم من ايقاف النمسويين اياماً الى ان تمّ حشد الجنود السربيّة الذين اسرعوا الى مساعدة اخوتهم فقطعوا في ثلثة ايّام

مسافة ١٥٠ كيلومترًا تحت قيادة اسكندر وليّ العهد والجنرال بوتنيك فهجموا على الجيوش النمسويّة وحاربوهم مدّة ايّام بلا انقطاع حتى بدّدوا شملهم في جبل تسار وانتهت هذه المعارك بانتصار السرب الباهر مع تفوّق النمسويين بالعدد والعُدَد

ثمّ عاد النمسويون بقوّات جديدة وحاولوا قطع نهر الساف شمالًا في العشر الاوّل من ايلول ١٩١٤ فردّهم السرب خاسرين كما ردّوهم غربًا من جهة نهر دريتسا بل دخلوا الاراضي النمسويّة وتقدّموا ظافرين الى جهات سارايافو . لكنّ العدوّ خجل من خيبته فعبّى الجيوش العديدة من جهة الجنوب وحمل الحملات المتوالية الى ان قطع نهر درينا واندفعت جنودهُ اندفاع السيل عند خراب سدودهِ فتقهقر السرب وانفتحت امام النمسويين طريق بلغراد فتقدّموا الى الأمام مستبشرين بالظفر وتحقيق آمالهم بالوصول الى سالونيك الّا انّ السرب عادوا وناوشوا القتالَ مرارًا عدوّهم اذ اتتهم الذخائر الحربيّة من فرنسة وجدّدوا تنظيم عساكرهم فهجموا على النمسويين من علوّ جبالهم فكسروهم كسرة شنيعة عند جبل رودنيك واسروا نيّفًا و٦٠،٠٠٠ من العدوّ فقضى العالم من بأسهم العجب ولاسيّما من اسكندر وليّ العهد والجنرال بوتنيك قائديهم . وهكذا انتهى الدور الاوّل من هذه الحرب التي كان يدعوها النمسويون « حرب الجزاء والعقاب » فكانت الدولة عليهم

لكنّ للقوى البشريّة حدودًا لا تستطيع ان تتجاوزها فانّ النمسويين لم يشاؤوا بازاء العالم ان يُنسَب اليهم الفشل فانتدبوا لاسعافهم المرشال ماكنزن مع فيالق من الجند الالماني . وكانت بلغارية دخلت في الحرب بجانب الدول المركزيّة فطلبوا ايضًا اسعاف جيوشها فحاربوا كلهم دولة السرب في وقت واحد شمالًا وجنوبًا فظفروا بها بعد المعارك الدامية ودخلوا بلغراد ونيش واوسكوب ثمّ مناستير واضطرّوا الجيوش السربيّة الى التقهقر دون ان يقووا على اسرهم . فسار السربيّون الى البانية واحتموا فيها مع ملكهم . تمّ ذلك في شهر تشرين الاوّل ١٩١٥

الّا ان الدول المؤتلفة لم ترضَ بان يُسحَق حلفاؤها بضغط اعدائهم فارسلت فرنسة اوّلًا الجنرال سرّاي مع جيش من اهلها الى جهات البانية لنجدة السرب . واذ رأت انّ ذلك لا يكفي لكسر شوكة العدوّ البالغ نصف مليون عددًا اتّفقت مع انكلترّة على بعثةٍ الى سالونيك لقطع الطريق امامهم الى البحر ولردّ غاراتهم

قبل بلوغهم الى تركية فوصلت جنودهم الى سالونيك في اواخر تشرين الاول لكن زحفة الالمان والنمسويين والبلغار كانت بلغت غايتها فاستولوا على السكك الحديدية وفتحوا لهم ممرًا بين المانية وتركية . فتقاعدت الدول المركزية بالانتحار النهائي

لم يقطع السرب املهم بعد فقدان وطنهم لكنهم اخذوا يستمدون لوقائع جديدة في السنة ١٩١٦ . فلما كان شهر آب مشى البلغار لمحاربة الفرنسويين والانكليز وفتح سالونيك . فجرت وقتئذ معارك تقشعر لذكرها الفرائص ودامت نحو ثلثة اشهر دون انقطاع وكان السرب يحاربون مع الفرنسويين والانكليز ببسالة عجيبة مستقتلين فتكلل ثباتهم بالنجاح وردّوا البلغار خاسرين وانتزعوا من يدهم مناستير في ١٩ ت ٢ سنة ١٩١٦

وبقيت الحال على ذلك مدة سنتين ومعظم سربية في قبضة العدو . اما جنودها فنُقلوا قسم منهم الى جزيرة كورفو وقسم آخر الى بيزرت في بلاد تونس وهناك بعد ان اخذوا نصيباً من الراحة استأنفوا التدرّب على الآداب الحربية تحت نظارة ضباط فرنسويين ثم عادوا بعد اشهر الى سالونيك يترصدون العدو ويناوشونه القتال حيناً بعد حين مع حلفائهم . وذلك الى اواسط تشوز سنة ١٩١٨ حيث تعيّن الجنرال فرنشه دسپيري كقائد عام على جيوش البلقان فانتفضت العساكر السربية مع الفرنسويين على مواقع البلغار انقضاض العقاب على فريسته في ١٥ ايلول فخرقوا صفوفهم الاولى ثم تبعوهم الى جبالهم المحصنة غربًا بينما كانت الجنود الانكليزية تحاربهم شرقًا . وقد امتازت خيل السرب في هذه الحملات . فالجأوا البلغار الى الفرار ولم تنفعهم نجدات الالمان المرسلة اليهم . وما انتهى شهر ايلول حتى دخل المرتلفون الى اسكوب وأيس البلغار من النجاة فطلبوا الامان ورضخوا للشروط القاضية عليهم بردّ سربية لاهلها . فعاد السرب مع ملكهم الى وطنهم ظافرين غانمين وقد اتسعت اليوم تخومهم واكسبتهم الحرب ما لم يحلموا به سابقًا

٥ الجبل الاسود

تبع الجبل الاسود وملكهُ نيقولا جيرانهم السرب في حربهم العوان وهم اخوة من حيث اصلهم الدقلي وشاطروهم فخرهم في انتصاراتهم على النمسويين في

الاشهر الاولى للحرب مع قلّة عددهم وعددهم . لكنهم ذاقوا ايضاً معهم مرائر الكسرة واحتلال بلادهم لمّا تحاملت الدول المركزيّة متكاتفة على سربيّة . فالتجأ الجبليّون الى اعالي بلادهم وقاوموا العدوّ مدّة حتّى احتلّ جبلهم لوفسان في ١٢ك ٢ ١٩١٦ فلم يبق لهم املٌ للخلاص وصارت البلاد في حوزة المركزيين لكنّ الجنود الجبليّة هاجرت ايضاً مع السرب ثمّ التفّوا حول الفرنسويين والانكليز في سالونيك وشاركوهم في خطّتهم الدفاعيّة والهجومية الى اوان الظفر الاخير . وكان ملكهم نيقولا قد رحل الى فرنسة ليسعى في امور دولته لدى اركان الحرب العموميّة لجاء الانتصار محقّقاً لامانيه

٦ رومانية

هي احدى الدول البلقانيّة موقعها بين ترنسلفانية المجريّة غرباً وروسيّة شرقاً وبلغارية جنوباً والبحر الاسود شرقاً الى الجنوب عاصمتها بخارست (بقرش) عدد اهلها نحو ٦،٣٠٠،٠٠٠ وهم من عنصر لاتيني لغتهم لاتينيّة عامّيّة يملك عليهم فرديناند الاوّل سميّ ملك بلغارية . وهم يدينون غالباً بالدين الرومي الاورثدكسي وبينهم عدد من الكاثوليك (راجع المشرق ٢ [١٨٩٩] : ٧٧ و ٢٢٤)

كانت رومانية في الحرب البلقانيّة لعبت دوراً سياسيًّا انتفعت منه دون خسارة كبيرة اذ أخذت مطامع بلغارية ووسّعت تخومها جزاء عن توسّطها بين جاراتها

وكذلك بقيت مدّة الحرب الاخيرة في الحياد تراعي الاحوال . وفي بلادها حزبان حزب يميل الى المانية والدول المركزيّة وحزب يفضّل دول الاتفاق طمعاً ببلاد ترنسلفانية ليضمّوها الى رومانية

سعت الدول المركزيّة بجذب رومانية الى طرفها حتّى بالتهديد اذ حشدت جنودها على حدود الرومان فتخوّفوا عاقبة الامر وما كان منهم الّا ان جنحوا الى روسيّة ودخلوا الحرب في جانب الائتلافيين لاسيّما اذ رأى رئيس الحكومة السيد جان براتيانو انّ الائتلافيين ارسلوا الى مقدونية حملةً تصدّ البلغار عن محاربة رومانية جنوباً . وكان إعلانهم الحرب على الدول المركزيّة في ٢٧ آب ١٩١٦ باغراء المسيو بريان رئيس الندوة الفرنسويّة الذي عقد مع رومانية عهداً يضمن لها ملك ترنسلفانية

ومن ساعتها نهضت رومانية نهضة الاسد وبعثت جنودها في عدد ٦٥٠،٠٠٠ الى ترنسلفانية ومعظم اهلها من العنصر الروماني فدخلوا اليها من جهتين على مسافة ٦٠٠ كيلومتر طولاً و٥٠ عرضاً

وكان الرومان يتكلون في صيانة تخومهم الشرقية والشرقية الجنوبية على الجيوش الروسية فخاب املهم فيها فان الالمان تحت قيادة ماكنزن وفلكنهين مع النمسويين والبلغار تحاملوا بسرعة على تلك الجهات وما لبثوا ان اجتازوا الى وسط البلاد واستولوا على اقليم دوبردجا وقطعوا الدانوب وفتحوا عاصمة الرومان بخارست في ٦ ك ١

فكلُّ هذه الفتوحات احوجت الرومان الى سحب جنودهم من ترنسلفانية فوقفت جيوش الدول المركزية امامهم واجتهدوا في ان يحدقوا بهم ويأخذوا بخناقهم امَّا الرومان فجاهدوا احسن جهاد ونجوا من ذلك الخطر لكنهم كانوا في احرج موقف فاضطرُّوا الى التقهقر بنظام وبقيت بلاد مولدافية في حوزتهم بمساعدة الجنرال برتلو الفرنسويّ الى آب من السنة ١٩١٧ حيث عاد الالمان والنمسويون بكلّ قواهم فدحروهم منها. وكان اكبرَ سبب فشل الرومان خيانةُ رئيس الحكومة الروسية شتورمر الذي كان يتوقع كسرتهم ليتخذها سبباً لمعاهدة منفردة للصلح

وانما رغائب رومانيَّة في ملك ترنسلفانية لم تذهب سدًى بعد نهاية الحرب فأتت كما شاءت

٧ اليونانيه

انَّ الملك قسطنطين لكونه صهرا لقيصر الالمانية ولميله الى الدول المركزية لم يشأ ان يخوض عباب الحرب مخالفاً بذلك لرغبة معظم اهل بلاده ولاسيَّما رئيس حكومته ڤنيزيلوس. بل لم يبقَ على الحياد لانفة أبعد المسيو ڤنيزيلوس واخذ يعرقل سرًا أعمال دول الائتلاف برًا وبحرًا ولمَّا دخل البلغار في الحرب وساروا الى جهات سالونيك رحب بهم وسلَّمهم بعض الحصون. فحكم عليه الفرنسويون والانكليز بدفع شيء من اسلحة دولته وذخائرها وطلبوا تعويضاً عمَّا اعطاهُ للبلغار فنشط قوماً من رعاياهُ على اثارة فتنة قُتل فيها بعض البحَّارة الفرنسويين في غرَّة كانون الاوَّل

١٩١٦ فكان ذلك دفع الدول الائتلافيَّة الى حصار تخوم اليونان اوَّلاً ثمَّ الى إكراه الملك الى الاستعفاء عن الملك وذلك في ١٢ حزيران ١٩١٧ فأقيم ابنهُ الثاني اسكندر على العرش

فتغيَّرت وقتئذٍ احوال اليونان وأعيد ڤيزيلوس الى تدبير الامور وانقلبت هيئة الحكومة وبعد ايَّام اعلن اليونان الحرب على بلغارية والدول المركزيَّة ثمَّ سارت جنودهم الى محاربة البلغار فردوا غارتهم عند نهر ڤاردار واحتلوا ولاية يانيا التركيَّة ثم انضمَّت الجنود اليونانيَّة الى جيوش الائتلاف في معسكر مقدونية الاخيرة ضدَّ البلغار والنمسويين فخرجوا من هذه الحرب التي نالوا منها المنافع الجمَّة باحتلال كريت وعدَّة جزائر في ارخبيل اليونان ولاسيَّما مدينة ازمير العظمى

٨ بلجكة

كانت بلجكة مطمئنَّة قبل الحرب لا ترى انَّ الدول المتعادية تنتهك حماها وكلُّها قد اتَّفقت في معاهدات سابقة على صيانة حدودها ووقَّعت عليها . وقد سبق لنا في كلامنا عن المانية كيف انَّها حنثت بأيمانها وتعدَّت الحقوق الدوليَّة فكان بوسع بلجكة بازاء هذا الجبَّار القاهر ان تحني رأسها وتكتفي لتصون شرفها بان تحتجَّ على المغتصب كما فعلت لوكسمبورج لكنَّ نفسها الابيَّة لم ترضَ بالضيم وفضَّل ملكها البطل ألبار ان يخاطر بدولته على الخنوع الى سطوة الالمان . فجنَّد العالم هذه النخوة وعظَّم هذه المروءة وتنسَّم الملاء هذه التضحية براتحة الرضى ليزيد تلك الدولة الصغيرة عزًّا وفخرًا

كان دخول الالمان في تخوم بلجكة كإعصار عاصف او كتيَّار جارف يريدون ان يُذهلوا العالم ببطشهم فيبلع الكلُّ ذعرًا من صولتهم لاسيَّما بعد ما وجدوا من المقاومة في سبيلهم اذ تصدَّى لهم الجنرال ليمان مع حاميته القليلة في لياج وكبَّدهم خسائر عديدة واسر احد قوَّادهم الكبار . لكنَّ قوَّات العدوّ لم تزل تنمو وذخائرهم الحربيَّة تزداد وتقوى حتَّى فتحوا لياج ودكُّوا حصونها بمدافعهم الضخمة وقذائفهم الجهنميَّة فاضطرَّ الجيش البلجكيّ ان ينجو بنفسهِ من جورهم . امَّا انفرس فصبرت شهرين بنيف على كلّ قوَّات العدوّ حتَّى نُسفت كلّ حصونها فدخلها الالمان في ٩ ت٢

فكان دفاع البلجكيين مدة اسبوعين خلاصاً لفرنسة اذ سمح لقوادها ان يحشدوا قواهم وينظموا جيوشهم ويستعدوا للقيام في وجه الالمان. لكن شهامتهم اثارت عليهم غضب اعدائهم فاستولوا على مدن بلجكة ولم يرعوا لاهلها ذماماً فضربوا ونهبوا وقتلوا مدّعين انّ ذلك اقرب الوسائل لنهاية الحرب بسرعة. ودونك ما كتبهُ وقتئذٍ غليوم الثاني لخليفه الامبراطور فرانسوا جوزيف: «انّ نفسي اسيفةٌ تتمزق من الاسف. ولكن لا مناص من اضرام كلّ شيء بالنار وسفك دماء الكل رجالاً كانوا او نساء صغاراً او شيوخاً. يجب قطع كلّ شجرة وتدمير كلّ دار. فبهذه وسائل الهلع تنتهي الحرب قبل شهرين». فناهيك بهذا الكلام صلفاً بل جنوناً. وعليهِ سار الالمان في بلجكة اذ قتلوا الوفاً من اهلها الابرياء وخربوا مدنها المفتوحة وألحقوا بالدقعاء قراها ومعاملها. بل احرقوا مكتبتها الشهيرة في لوفان وصوّبوا مدافعهم على كنائسها الكاتدرائيّة وضربوا على بروكسل عاصمتها ضرائب بلغت مئتي مليون من الفرنكات

فكان لهذه الاعمال الهمجيّة اسوأ وقع في نفوس العالم المتمدن عموماً وفي البلجيكيين خصوصاً حتّى حوّلوا قلوبهم المالئة سابقاً نحو الالمان الى بغضٍ مؤبّد. ولمّا أراد بعد ذلك حكام بلجكة الالمانيّون كفون ديرغلس وفون بتنغ ان يؤلفوا قلوبهم ويضمدوا على زعمهم جروحهم بضروب المجاملة والتسليمات لم يلقوا عندهم الّا اباء ونفوراً وتضافر البلجكيّون على نشر صحيفة يوميّة سرّاً تحت اسم بلجكة الحرّة. كانوا يوزعونها على الاهلين ويبلّغونها الى الحكام الالمان انفسهم يقبّحون فيها كلّ اعمال العدو ويعلنون لاوربّة مكايدهم دون ان يقوى الالمان على اكتشاف ناشريها. واذ سعى عمّالهم ان يستروا ظلمهم فدعوا علماء بلجكة ليواصلوا دروسهم ويفتحوا كلّيّاتهم لم ينخدعوا بدهاتهم وبقوا في حدادهم ينتظرون نهاية الحرب

ومنّ تحفّزوا منتصرين لحرّيّة وطنهم ذاك رئيس الاساقفة الباسل شرف الدين والعلم والوطن الكردينال مرسيه الذي دافع عن حقوق رعاياه دون ان تعمل فيهِ تمويهات عمّال الالمان الذي استنفدوا الوسع ليكسبوا رضاهُ فلم يتطل عليهِ لا الوعد ولا الوعيد. وقد وقفنا على مناشيرهِ وكاباتهِ ابّان الحرب فذكّرتنا بشهامة الساقفة

الاعصار الحالية الذين لم يهابوا قوة بشرية بل بذلوا النفس والنفيس في جانب الحق

اما الجيوش البلجيكية فبعد خروجها من لياج توجهت بنظام الى جهات فلندرة واجتمعت بالجيوش الفرنسوية والانكليزية لسد الطريق في وجه الالمان . وفي ٢١ آب ١٩١٤ حصلت موقعة شرلروا من اعظم المعارك التاريخية اذ نزلت لاوّل مرّة في حومة القتال المانية مع الدول المؤتلفة فقامت حول شرلروا حربٌ عبوس حارب فيها نحو مليون من الجند فوقعت شرلروا خمس دفعات في ايدي الالمان واسترجعها الائتلافيون الى ان تراكم عليهم الالمان وحملوا عليها الحملات العنيفة وكانت مدافعهم تزيد اربعة اضعاف على مدافع الفرنسويين والانكليز فكان الفوز النهائي لهم . وأصيب البلجيكيون بهذه الواقعة بخسائر فادحة لكنهم لم يقنطوا وزادوا تحمساً وتقربوا غرباً الى جهة نهري اين وايزر . ولمّا سقطت انفرس في ايدي الالمان تمكنت جنودها من الفرار والحقوا باخوتهم منتظرين ما ستؤول اليه الاحوال في جوار باريس

وعندما فاز الفرنسويون بذلك الانتصار الباهر عند نهر المارن وقهروا الالمان في اواخر ايلول انسحب هؤلاء ووجهوا قواهم الى جهات كالهْ ليضبطوا سواحل البحر واستبشروا بالفوز القريب عند نهر ايزر لكنهم أصيبوا هناك بضربة ثانية في اواسط تشرين الثاني . فكانت ضغثاً على ابالة وقد بلغ عدد الصرعى من الالمان مائة الف . وكان للبلجيكيين في هذه الوقعة نصيب من الفخر عزّاهم نوعاً عن بلاياهم السابقة وبقيت مدينة ايپر في يدهم خلافاً لما بشّر به غليوم عن فتحها العاجل

وبعد هذا الفوز العظيم تحصّن البلجيكيون في مواقعهم وعارضوا الالمان في حفر الخنادق . واذ قدّمت حكومة فرنسة للملك البار احدى حواضرها ليسكن فيها مع حاشيته ابى الّا البقاء مع جنوده فكان مثلهُ منعشاً لهمم جميع رعاياهُ . وكان الشبان البلجيكيون رغماً عن ضبط الثغور وسد الطرقات والتهديد بالقتل يحتالون على الخروج من وطنهم ليلحقوا بملكهم ويحاربوا معهُ . فخرج الالوف منهم غير مبالين بالاخطار وانضمّوا بنخوة عجيبة الى مواطنيهم ليحاربوا في سبيل الوطن

بارك الله صبرهم وثباتهم في خريف سنة ١٩١٨ . فان الجيوش البلجيكية سارت في العشر الاخير من ايلول لمحاربة الالمان مع الفرنسويين والاميركيين وبادهرهم القتال ببسالة غريبة فقطعوا خطوطهم التي زعموا انها لا تُقطع ولم يزالوا

يتأثرون اعقابهم يوماً بعد يوم فتهكروا فيهم واجتثوا دابرهم : وما مر عليهم بضعة ايام حتى طهرت بلجكة من العدو ودخل الملك البار ظافراً مكللا بالمجد الى كرسي ملكه والفرح آخذ في صدور رعاياه كل مأخذ

مطبوعات شرقية جديدة

ABOU-MAHASIN IBN TAGRI BIRDI'S ANNALS : AN-NUJUM AZ-ZAHIRA FI MULUK MISR WAL-KAHIRA, Edited by **William Popper.** Published by the University of California Press, *Berkeley, Vol VI part* I. N^os 2 *and* 3, *pp.* 165–176

تكملة كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابي المحاسن بن تغري بردي

مر لنا الكلام في وصف الاجزاء السابقة من هذا التأليف الجليل الذي وضعه احد كبار المؤرخين المسلمين ابو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤هـ(١٤٦٩م) فطبع منه جزءان في ليدن اولاً ثم حاول تتمة طبعه المستشرق الاميركي وليم پوپر وها هنا جزئين اخرين طبعا في اثناء الحرب وبعدها يتناولان اخبار دول المماليك في مصر من السنة الهجرية ٨٠٨ الى ٨٢٣ . والمؤلف هناك يتسع في رواية حوادث زمانه فيأتي بالمعلومات المستوفية على احسن طريقة بذكر اعمال كل سلطان اولاً ثم بتفصيل ما جرى في كل سنة من سني ملكه . ولا تنقص هذه الطبعة عن اختها في شيء من حسن الورق والعناية بضبط النصوص والتذييل بروايات النسخ المختلفة . فنتمنى قريباً ان شاء الله مواصلة العمل وانجازه مع اضافة الفهارس والملحوظات عليه

ل . ش

LA REVUE UNIVERSELLE. Paris, 157, Boulevard St.-Germain (6e) N° I, Avril, 1920, pp. 128

المجلة السوبتية

هي مجلة جديدة يتولى ادارتها الكاتب الاجتماعي جاك بنفيل (J. Bainville) والادباء الشهيرون هنري ماسي (H. Massis) ولاون دوده (L. Daudet) ولويس دميه (L. Dimier) وغيرهم ولم يثنِ عزمهم عن مباشرتها لا وفرة المجلات

الادبيّة في فرنسة ولا العوائق الحاليّة لنشر المطبوعات . وغايتهم في نشرها جمع القوى الادبيّة وضمّ كلمة اصحاب النظام لمقاومة تيّار الجهل والمكر والخداع وقت عضد طالبي الفتن والفساد . ولإدراك هذه الغاية عوّلوا على نشر المقالات الاجتماعيّة والفلسفيّة والادبيّة والسياسيّة الموافقة للاحوال الحاضرة سواء كان في فرنسة او في بلاد حلفائها فيطّلع قرّاؤهم على حركة العقول في العالم كله . وهذا العدد الاوّل يفتتحه الكردينال مرسيه بمقالة جميلة عن الشاعر دانتي ومار توما اللاهوتي يليها مقالة اجتماعيّة في النظام الدولي لشرل موراس (C. Maurras) ومقالات اخرى نخصّ منها بالذكر مقالة في الخلال تركيّة وفي الثورة البولشفيّة الخ الاب ج . لوقنك

I. René Pinon : La Suppression des Arméniens, 6e éd. *Paris*, 1916, *in*-12. *pp.* 76 = II. H. Ad. Gibbons : Les Derniers Massacres d'Arménie, *Paris*, 1915, *in*-12 *pp.* 47 = III. Vte Bryce : Le Traitement des Arméniens dans l'Empire Ottoman (1915-1916), *Laval*, *in*-12. *pp.* 553 = IV. Varandian : L'Arménie et la Question Arménienne, *Laval*, *in*-12, *pp.* 115 = V. La Question Arménienne devant la Conférence de la Paix, *in*-4, *pp.* 25 *et trois Cartes* = IV. K. J. Basmadjian : La Cilicie, son Passé et son avenir, *Paris*, *in*-12, *pp.* 47.

ارمينية وقيليقية وما ينوط بها

في باريس جمعيّة من الارمن وانصارهم سعوا في ايّام الحرب وبعده في إلفات نظر اوربّة عموماً وفرنسا وانكلترّة خصوصاً الى ما حلّ بأمّتهم التاعسة منذ اوّل الحرب الى اليوم . وبعثاً للرأي العام قد وضعوا مؤلّفات عديدة من جملتها التآليف المعنونة هنا وفيها التفاصيل المؤلمة عن الفظائع التي اقترفها الاتراك ليستأصلوا الشعب الارمني حتّى قُتل منهم فوق المليون قتلاً يسوّد الى الابد وجه الدولة العثمانيّة . وفي هذه التآليف ايضاً عَرْض الارمن امورهم على الدول الظافرة ولاسيّما على ندوة السلام ومجلس الأمم ليجعل حدّ لعذاباتهم فيُمنحوا استقلالاً تامّاً ويوضعوا في عُهدة احدى الدول الكبرى . اما التأليف الاخير فهو للكاتب الارمني بسمجيان يذكر فيه تاريخ قيليقية في الزمن القديم وتملك ماوك الارمن عليها ثمّ ينتقل الى ذكر احوالها حاضراً مؤمّلاً دخولها في حكمهم . فعسى ان يفوز الارمن بما يؤمّلونهُ من الامن والصلاح

LE CHATIMENT DE LA TURQUIE par un Diplomate, *Genève*, 1919, *in*-12, *pp.* 27.

معاقبة تركيّة لأحد وكلاء الدول

هذه محاضرة لاحد رجال السياسة عرض فيها مسئوليّة تركيّة وجنايتها في الحرب العموميّة الاخيرة ولا سيّما رؤساءها الاتحاديين انور وطلعت وجمال بعد ما نالته حكومتهم من سوابغ النعم بفضل الدول الانتلافيّة . ثمّ يختم ذلك ببيان العقاب الذي تستحقّهُ تركيّة لمكرها وقوّادها لخيانتهم

ل . ش

BAR HEBRAEUS BOOK OF THE DOVE, translated by **A. J. Wensinck** with an Introduction, Notes and Registers, *Leyden — E. J. Brill*, 1919, CXXXVI- 151.

كتاب الحمامة لابن العبري

قد اثبتنا في السنة الاولى من المشرق ترجمة ابن العبري ووصفنا تآليفهُ العديدة في السريانيّة والعربيّة في كلّ فنّ . فمن جملة هذه المصنفات كتابهُ السرياني المُعنون بالحمامة وضمهُ للنسّاك والرهبان الطالبين للكمال المسيحيّ . ودعاهُ بالحمامة مجازًا ليشير الى خلوة النسّاك وهذيذهم بالمناجيات . وكان وطّنا الفاضل القس جبرائيل القرداحي ثمّ حضرة الاب العازاري الكلداني بولس بدجان نشرا هذا التأليف : الاوّل بالحرف الاسطرنجلي في رومية سنة ١٨٩٨ والثاني بالحرف الكلداني في باريس في ذات السنة فاحبّ احد المستشرقين الهولنديين ان ينقلهُ الى الانكليزيّة مع ترجمة بعض الفصول من كتاب آخر لابن العبري (الاثيكون) ويقابلها بما ورد في كتب المتصوّفين المسلمين السابقين لعهد ابن العبريّ ولا سيّما الغزالي كبيرهم فبيّن بالمقابلة انّ ابن العبري استقى كثيرًا من اقوالهِ من بعض معاصريهِ وسلفائهِ المذكورين . فوجدنا في هذا المدّعى شيئاً من المبالغة فانّ التصوف الاسلاميّ سبقهُ عند اليونان واللاتين والسريان عدد لا يحصى من الكتبة الذين طرقوا باب التعاليم الروحيّة والطرائق النسكيّة . فان كان ابن العبريّ اخذ شيئاً من تصوّف المسلمين فليس ذلك الّا نزرًا قليلًا . وعلى خلاف ذلك الكثير ممّا اخذهُ المتصوّفون المسلمون من تعاليم الرهبان السابقين ولعلّنا نعود الى هذا الامر عند سنوح الفرصة وعلى كلّ حال نشكر مؤلف

هذا الكتاب على طرقه هذا الباب فانهُ من الابحاث الجديدة التي قلمّا انتبه اليها المستشرقون ل. ش

النسائيات

كتاب ادبي اخلاقي اجتماعي

بقلم جرجي نقولا بار : طبعة ثانية في المطبعة العباسية (ص د ١)

لم يجمد قلم اديبنا جرجي افندي مدة هذه السنين المشئومة التي مرّت علينا رغماً عن وقوف بجلّته الحسناء . وقد عاد بعد نهاية الحرب الى المواضيع التي تعشقها من وصف اخلاق النساء وذكر آثارهن والسعي باصلاح شؤونهنّ وترقية احوالهنّ . وكتاب النسائيات دليل جديد على هذه الميئة ضمّنهُ عدّة مقالات نشرها في الحقيقة ثمّ جمعها طاقةً كلّها زهور يحسن باجلس اللطيف استنشاق روائحها العطرة . ويا ليتهُ اودعها زهرةً اخرى تزيدها حسناً ان أضيفت اليها وهي زهرة الدين التي تزين المرأة فوق سواها . وممّن لم نجد لهنّ اسماً في جدول المدارس الاناثية التي ذكرها (ص ٤٧) راهبات القلبين الاقدسين فان مدارسهنّ من افضل المدارس نظاماً واوفرها عدداً

مغالط الكتّاب ومناهج الصواب

بقلم الاب جرجي جنّ اليسوعي

بطبعة القديس بولس حريصا لبنان (ص ١٢٦)

سبق صدور هذا الكتاب عهد الحرب فلم نطّلع عليهِ الّا مؤخّرًا فنقول نعم الغاية يتوخّاها بحبّ لغتنا العربيّة ان يدوّنوا اغلاط التي يسقط فيها الكتبة لئلا يعودوا ويعثروا فيها . وقد حرص قديمًا قوم من العلماء على ذلك كالحريري في درّة الغوّاص في اوهام الخواصّ والجواليقي في التكملة فيما يلحن فيهِ العامّة وكالمرحومين الشيخ ابرهيم اليازجي في لغة الجرائد والشيخ سعيد الشرتوني في مقالات شتّى في المقتطف . وهذا الكتاب الجديد اوسع مادّةً واسهل طريقةً جرى فيهِ كاتبهُ الفاضل على طريقة حروف المعجم . فدلّ على الخطإ ثمّ على الصّواب وعلّل ذلك بذكر السبب . على انّ هذه المجاميع كلّها مع الكثير من صوابها ربّما تجاوزت الحدود

في تضييقها على الكتبة سبل الكتابة كما ظهر بردود الخفاجيّ على الحريري (راجع طبعة الاستانة) وكردود الشرق على عدة مزاعم للشيخ ابرهيم اليازجي . ومن ثم لا نعدّ استناد حضرة الاب جرجي الى الشيخ كفصل الخطاب وربّما كان حكمهُ رأياً لغويًا ليس الا . وعلى كلّ حال نشكر صاحب الكتاب على انتصاره لمحاسن اللغة ورغبته في خلوّها من الشوائب

لمعشر

شذرات

نكبات النصارى نضمّ صوتنا الضعيف الى زفرات البائسين وانين الجرحى بل الى دموت دماء اخوتنا النصارى القتلى في جهات مرجعيون وعكّار ونواحي صور وبلاد بشاره فضلًا عمّا سُفك منها في جهات مرعش وقيليقية . فليت شعري ما هذه الحالة والى متى تدوم هذه النوائب وكنّا ظننّا ان بدخول فرنسة في هذه البلاد ستتمتع بالامان الوافي والسلام التامّ وها قريباً من سنتين والسيف في ايدي الظالمين لا يزال يرشف دماً كأنّ حرب مجاعة الاتراك تحوّلت الى حرب البواتر والصوارم . فالى من يلتجئ المسيحي اللهيف الّا الى محاميتهِ الطبيعيّة وامّهِ الثانية فرنسة المحبوبة . افيخيب بها أملنا ولديها ما لديها من الوسائط الفاعلة لقطع دابر الظالمين والذّود عن حياض المظلومين . عهدنا باسمها اذ كانت بعيدة يكفي لردّ غارات العدوّ أفيبوت ابناؤها جزرًا بالسيف تحت نظرها . لا وأيم الله فاننّا واثقون بعدلها وحنانها . وما لحكّامنا ذوي الشهامة والبأس الّا ان يقصدوا ويعمدوا الى الحزم فيبدّدوا المعادين ويجعلوهم عبرة زاجرة واحدوثة سائرة

الطاولات الدائرة اخبرنا احد الاصحاب انّ بعضاً من الشبّان ذوي الطيش والترق اخذوا يتلهّون بتدوير الطاولات . وقد كتبنا في ذلك فصلًا في اوّل عدد المشرق لسنتهِ الاولى (ص ٦٢ — ٦٦) ردًا على جريدة البنانة فاثبتنا انّ ذلك ليس من الملاهي الطبيعيّة الجائز التفكّه بها وانّ الكرسيّ الرسولي قد حظّر على المؤمنين هذه الالعاب وهدّدهم بالحرم ان لم يرعووا . امّا ما يظهر هناك من

حركات الطاولات واجابتها على اسئلة السائلين بضربات معلومة وغير ذلك من الخوارق لا يمكن تعليلها بوسائط طبيعية وعليه لا ترى ذكرًا في كتب العلماء الطبيعيين للطاولات الدائرة فلا بد اذن من نسبتها الى ارواح خبيثة تتوسل بها الى تضليل البشر . وقد اخبرنا الثقة من اهل بيروت المعتبرين انه حضر يومًا جلسة أديرت فيها الطاولات ولما سُئل الروح الذي يحركها ما اسمهُ اجاب بدقات ثلث كانت اول اسم الشيطان بالفرنسوية Démon . والعجب ان الشيطان ربما اجاب بانكران وجوده كما روى البشير في بعض ردوده على المقتطف . ومن غريب ما روى صاحب الهلال في احد اعداد سنته السادسة والعشرين ابريل ١٩١٨ (ص ٥٨٤) حيث ذكر جلسة استحضرت فيها الارواح انها سُئلت عن جهنم فاجاب الوسيط بينها وبين الحضور « يجوز لي ان اقول بعدم وجود جهنم بعد الموت كما انها منذ زمن بعيد لم تعُد موجودة في مخيلة كل انسان مفكر » . فهكذا يخدع الشيطان البشر ولا غرو فانهُ ابو الكذب وشيخ النار يشتهي ان يسقط الجهال كالعميان بين مخاليبهِ بتفضيلهم كذبهُ على تعليم السيد المسيح وكنيستهِ بل على تعليم كل الاديان دون اختلاف

المئة الثالثة لمولد اول علماء اللغات الهندية من المستشرقين في ١٨ كانون الاول من السنة الحاضرة ستقام في مدينة دلنغن في المانية حفلة عظيمة تذكارًا لمولد اول اوربي دخل الهند فتعلَّم لغاتها القديمة اخصها اللغة السنسكريتية اصل اللغات الهندوجرمانية والاوربية عمومًا ونشر شيئًا منها . وما هذا الاوربي الا يسوعي الماني اسمهُ يوحنا كنراد رُوث (J. K. Roth s. j.) وُلد في دلنغن في ١٨ ك ١ سنة ١٦٢٠ ودخل الرهبانية اليسوعية في ٢٥ ك ١ سنة ١٦٣٩ ورحل الى الهند للتبشير بالايمان بعد ان نذر السفر للرسالة اذا شفي من مرض عضال ايسوا فيهِ من حياتهِ فشفي وسافر الى الهند في ٢٧ ك ٢ ١٦٥٠ على طريق البر من حلب الى بغداد وبحر العجم ومضيق هرمز حتى بلغ مدينة غوا سنة ١٦٥٢ فارسلوهُ مدةً الى رسالتنا في الحبش لمساعدة اخوتهِ المرضى لاضطهاد النجاشي ثم رجع الى الهند وخص نفسهُ بخلاص اهلها وكان في اوقات الفراغ يدرس اللغة السنسكريتية القديمة بمساعدة احد البراهمة المرتدين الى النصرانية حتى ألَّف قواعدها لاتينيًا لدرس اللغة المذكورة فبقي في الهند ثماني سنين ورحل الى أغرا واجتمع بملك المغول

ثمّ سافر الى التبّت ومنها الى الصين ثمّ عاد راجعاً الى ايطالية على طريق روسية والتر وتركيّة والنمسة وغايتهُ ان ينشر غراماطيقهُ المذكور لمساعدة المرسلين على درس تلك اللغة امّ اللغات الاوربيّة المعدودة عند اهل الهند كلغة مقدّسة . فلمّا وصل الى رومية سلّم كتابهُ الى احد الآباء اليسوعيين فيها ليمثلهُ للطبع وهو الاب اثناس كِرْخر العظيم الشهرة وعاد هو راجعاً الى الهند على طريق روسيّة مرافقاً لسفارة ارسلها مالك النمسة الى الصين فكان الاب روث احسن دليل لها . ثمّ رجع الى الهند ووصل اليها سنة ١٦٦٥ واستأنف اعمال الرسالة في أغرا وهناك توفي في ٢٠ حزيران ١٦٦٨ . فذكرًا لهذا الرجل العظيم ستعقد حفلات رسميّة يحضرها اعيان الالمان وعلماؤهم فتكون فخرا للكنيسة الكاثوليكيّة وللرهبانيّة اليسوعيّة . امّا غراماطيق الاب روث فان الاب كِرْخر لم يتوفق الى طبعهِ وبقي مخطوطاً في زوايا النسيان الى ان وقفوا عليهِ في خزانة الرهبانيّة اليسوعيّة في رومية ويسعون اليوم في نشرهِ

سريان الكاثوليك في البصرة — نشرنا في المشرق (ص ٢٩٧ — ٢٩٩) اثرًا قديمًا للنيّب الذكر البطريرك اغناطيوس جروه استفدنا منهُ وجود رعيّة سريان كاثوليك في البصرة في السنة ١٧٨٥ مسيحيّة . وها قد تفضّل حضرة القس اسحاق ارطه فارسل لنا نسخةً من كتاب آخر نقلهُ عن سجلّ رسائل البطريرك المذكور المصون في دير الشرفة العامر وهو جامع للمناشير والرسائل التي اوفدها اليه المجمع المقدّس واجوبة البطريرك عليها . ومن جملتها الرسالة الآتية الموجّهة اليه من رومية في تاريخ ٧ ايار سنة ١٧٨١ اذ كان بعدُ مطرانًا على حلب وذلك تحت عدد ٢٥ . وهذا الكتاب اثر جديد يؤيد وجود السريان الكاثوليك في البصرة في القسم الثاني من القرن الثامن عشر

ايها السيّد المكرّم والكلّي الاحترام نظير اخ

ان بعض عيلات من الكاثوليكيين القاطنين في مدينة البصرة قد توسّلوا من مدّة زمان الى هذا مجمع انتشار الايمان المقدّس كي يلتمس لهم من قدس الحبر الاعظم الاجازة ليحتضنوا الطقس اللاتيني . ويوردون السبب عن ذلك في انهُ لا يوجد عندهم كاهن من طقسهم ليوسهم . ولكن هذا الميل هو سبباً مانعاً يمنع عن ان يصير الاهتمام في ان يرسل لهم كاهن من الطقس عينه من غير اماكن . ولهذا فقد كُتب للمذكورين في ان يلتجئوا الى حضرتك بما ان سلطانك قد امتدّ على سريان ما بين النهرين والاماكن اللائذة بها لكي توجّه الاهتمام بانتخاب كاهن كافي

لتدبيرهم ويمكن ان البادري فولجنسيوس من القديسة مريم الكرملتاني الحافي المرسل في مدينة البصرة المذكورة يكتب لحضرتك عن ذلك . ولكن ان كان لا يوجد كاهن حسب المطلوب فيمكنك ان تخبر هذا المجمع المقدس لكي في حال مثل هذا يهتم للمذكورين بنوال الاجازة للدخول في الطقس اللاتيني المطلوب منهم . هذا ما لزم ان اخبر به حضرتك واني بانتظار الجواب عن ذلك . فاضرع الى الرب الاله في حفظك ونجاحك نظير اخ

استفانس بورجيا كاتم الاسرار لوزدس الكردينال انطونلي
رئيس المجمع المقدس

أسئلة وأجوبة

س سأل الاديب الحواجا يوسف صفير أيوجد علاقة بين ترشيش المذكورة في سفري ارميا (١٠ : ٩) وحزقيال (٢٧ : ١٢) وطرسوس المذكورة في سفر الاعمال . ثم بينهما وطرطوس ترشيش وطرسوس وطرطوس

ج ترشيش المذكورة في اسفار الانبياء وكتب العهد القديم هي احدى مدن اسبانية في جنوبيها من اوسع البلاد تجارة كان يقصدها الفينيقيون فاتخذوا لهم فيها المخازن التجارية وكانت اكبر سفنهم تبحر اليها . وهذه المدينة خملت بعد ذلك والكتبة يظنون انها هي مدينة طُرْطُوشة (Tortose) القريبة من البحر على نهر الإبر (Ebre) . اما طرسوس فهي مدينة قيليقية الشهيرة بين آطنة ومرسينة في وسطهما وهي وطن القديس الرسول مار بولس وتختلف كلتاهما عن طرطوس احدى مدن سواحل الشام شمالي عمريت بين طرابلس واللاذقية

س وسأل احد القراء هل عُرف مشروب الجعة (البيرة) في الزمن القديم الجعة وقدمها

ج كان المظنون انّ الجعة من المشروبات الحديثة بالنسبة الى غيرها لكنّ احد الاثريين النمسويين اكتشف في اطلال بابل على اسطوانة عليها كتابات اشورية ورد فيها ذكر الجعة ووصفها وتاريخ الكتابة سنة ٢٨٠٠ قبل المسيح ومن ثمّ يجب ان تُعدّ الجعة من اقدم المشروبات المسكرة ل . ش